كلمة العدد

مراكز الوثائق
جسور للتعاون بين الباحثين

بقلم سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

عندما يلقي الإنسان نظرة على مسيرة مركز الوثائق التاريخية بالبحرين في الربع الأخير من القرن العشرين وبالتحديد في الإحدى والعشرين سنة الأخيرة منه فإن الإنسان يحمد الله على ما تحقق وهو كثير، فقد استطاع المركز، وعبر جهد دؤوب ومتواصل أن يحقق معظم الأهداف التي قام من أجلها كما استطاع أن يكون كما وعد، جسراً متيناً يربط بين الباحثين والوثائقيين خليجياً وعربياً ودولياً، ولا يظهر حجم ما تحقق جيداً إلا إذا ألقينا نظرة على ما كان يعانيه الباحث في الماضي . لقد كانت المادة التاريخية شحيحة للغاية إن لم تكن معدومة بالنسبة لبعض الفترات وكان على الطالب أو الباحث في تاريخ المنطقة أن يشد الرحال إلى تركيا أو الهند أو مصر أو لندن وأن يرتب للإقامة فترة قد تطول وقد تقصر وكانت في الغالب تطول، ثم يعد نفسه للتردد على أرشيفات قد تكون

مغلقة في وجهه، فإذا عثر على وثيقة أو أكثر لم يكن واثقاً أن ما بها صحيح أو موثق، ثم يعود إلى بلده بالقليل الذي حصل عليه ويحاول معالجته تاريخياً - وقد ينجح وقد لا يحالفه النجاح - فإذا نجح لم يكن واثقاً أن ما توصل إليه هو الحقيقة الكاملة . كان ذلك يحدث في الماضي . وبقيام مراكز الوثائق في المنطقة تغيرت الصورة تماماً .

في البحرين، نشط المركز ومنذ أيام نشأته الأولى في محاولات جريئة للدخول لعدد من الأرشيفات الهامة التي ثبت أن بها آلاف الوثائق التي تتعلق بالبحرين والخليج ثم المنطقة العربية . وعبر جهود خارقة جمعت آلاف الوثائق من الأرشيفات العثمانية والبرتغالية والهندية والمصرية والإيرانية، ثم وهو الأهم استطاع المركز أن يخترق الستار الحديدي وأن يرتب للحصول على بعض الوثائق الهامة من الأرشيفات الروسية فيما كان يبدو في السابق ضرباً من المستحيل . ليس ذلك فقط وإنما استطاع أن يمد جسوراً من التعاون مع عدد من الباحثين الروس الذين قدموا عدداً من الأبحاث حول الرؤية الروسية للمنطقة وكيف كانت السياسة الروسية تنظر لمنطقة الخليج فيما يعد إضافة في غاية الأهمية للبحث التاريخي بالمنطقة، واكتملت هذه العلاقة بتنظيم ندوة بالبحرين حضرها عدد من المؤرخين والوثائقيين الروس، قدموا عدداً من الأبحاث بعضها نشر في "الوثيقة" وبعضها في الطريق إلى النشر .

بعد أن جمعت آلاف الوثائق تمت فهرستها وتمحيصها وتبويبها وطباعتها وتوزيعها على المراكز الشقيقة في المنطقة عبر الأمانة العامة لمراكز الوثائق والدراسات بالخليج والجزيرة العربية لتكون متاحة أمام الباحثين في دول الخليج الشقيقة . ولم يعد الباحث في حاجة إلى شد الرحال إلى أي مكان خارج بلده . بل أصبح باستطاعته أن يجد المادة التاريخية التي يحتاج إليها موثقة ومبوبة ومفهرسة ومتاحة أمامه في كل الأوقات .

وتحولت المراكز بفضل هذا الجهد إلى مجامع نشطة للبحث يتردد عليها طلاب الجامعات والمؤرخون مما انعكس على تنشيط حركة البحث في تاريخ المنطقة .

وكان الهدف الرئيسي الثاني هو الاستفادة من هذه الوثائق في إعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة الذي تعرض للتشويه على أيدي بعض المستشرقين سواء عن قصد أم عن غير قصد وبدأ رعيل ممتاز من أبناء الخليج في تصحيح الكثير من الأغلاط من خلال مجموعة من الأبحاث في مختلف حقب التاريخ على الساحة الخليجية . هذه الأبحاث بتعددها واختلاف وجهات نظر معديها والزوايا التي أطلت منها على الأحداث السابقة تشكل الآن مادة تاريخية جديدة وثرية متاحة أمام جيل جديد لكتابة تاريخ المنطقة على أساس من الحقائق التاريخية التي أفرزها البحث والتدقيق والتعدد . .

حقيقة أن حركة كتابة التاريخ مازالت في بدايتها، ولكن المؤكد أن البداية قوية وتبشر بنتائج تحقق الأمل وتحقق الطموح .

لسنا ندعي هنا أن ما تحقق هو نهاية المطاف . فالآمال العريضة لا تعرف لها أفقاً محدوداً . . ولكننا نقول أن ما تحقق يواكب المأمول بصورة تدعو للرضى . . وإن كنا نأمل في المرحلة القادمة بتوفيق الله أن تزداد الروابط بين المراكز قوة وأن تشهد الجسور التي تربط بينها بروح التعاون والأخوة حركة أكثر نشاطاً في الاتجاهين وأن تكون هذه الجسور معبراً للباحثين إلى عالم الحقيقة التي لا تجانب الصواب والتي تقدم للأجيال القادمة صورة من تاريخ ماجدٍ شهدته الساحة الخليجية عبر التاريخ الممتد . . ونحن نرجو في هذا الصدد ألا تكون الكتابة التاريخية ملعباً للهواة . . فهي من الأنشطة الإنسانية التي لا يجيدها إلا المحترفون الذين وهبوا أنفسهم للعلم وللحقيقة وللتاريخ . ونرجو أيضاً أن تنشط حركة البحث حتى يمكن الاستفادة مما تم جمعه من وثائق وحتى تدفع العمل في

هذا السبيل خطوات جديدة للأمام . . فالوثائق وإن كانت هامة في حد ذاتها، إلا أن الفائدة تكون أكثر لو تمت الاستفادة منها في معرفة الحقيقة . والحقيقة لا يمكن الوصول إليها إلا بالتمحيص والمقارنة والتحليل وهو ما تتيحه الدراسة التاريخية الموضوعية التي يمكن أن تكون الأساس الراسخ لكتابة تاريخ المنطقة أو إعادة كتابة تاريخ المنطقة كهدف يسعى إليه الجميع . . مسئولين ومؤرخين ومواطنين .

والله ولي التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

يوميات سفينة فرنسية في



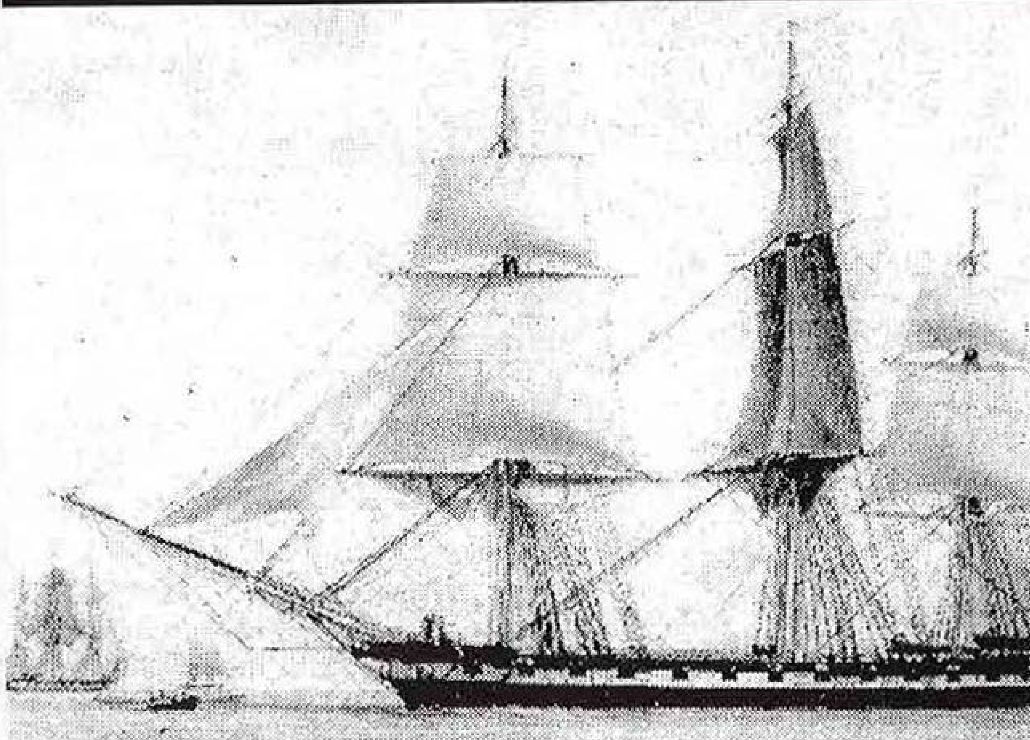
بقلم : زافير بيجوين بليكوك

كانت الرياح شديدة صباح يوم ٣ يونيو عام ١٨٤١م . وفي تمام الساعة ١١,٣٠ أبحرت الفرقاطة الخفيفة الجميلة (لافاووريت) حمولة ٧٥٢طناً مزودة بـ ٢٤ مدفعاً وعليها طاقم مكون من ١٦٤ بحاراً، تحت قيادة القبطان الجريء (ثيوجين بيج)، أبحرت من ميناء "بريست" . وودعتها مجموعة من البريتانسيين بفخر واعتزاز وسط هتافات حماسية .

وكانت السفينة واحدة من القوات البحرية للملك الفرنسي (لويس فيليب الأول) . ورفعت المرساة استعداداً للرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح إلى المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر . ومن هناك كان عليها أن تواصل رحلتها إلى الشرق الأقصى حتى الصين وإلى شواطئ نهر الهانج "يانجتسي" أو النهر الأزرق" .

وكانت رحلتها عبر البحار الشرقية خاصة إلى الخليج حدثاً تاريخياً لأن الحكومة الفرنسية، لأول مرة، ترسل سفينة في مهمة إلى الخليج، على وجه الخصوص إلى عاهل دولة البحرين . (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) .

ـارتها للبحرين عام ١٨٤٢م



ـبحرين منذ ١٥٠ عاما
ـعيني قبطان فرنسي

ترجمة مركز الوثائق التاريخية
ب.ك.نارين

الوثيقة ١٣

وكان لأرخبيل البحرين تاريخ مجيد، وزيارة "لافاووريت" له كانت زيارة ذات أهمية بالغة . وتلقى قائد السفينة وطاقمها ترحيباً حاراً أميرياً من كل من الحاكم، (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، والأسرة الحاكمة والحكومة والشعب طبقاً لكرم الضيافة العربي المعروف .

وطال أمد المهمة الدبلوماسية إلى البحار الشرقية من ٣ يونيو ١٨٤١م إلى ٦ مايو ١٨٤٤م، وقد جاءت في أعقاب مهمة شهيرة كئيبة وإن كانت مهمة تاريخية مجيدة بعد بضعة أشهر . مما استدعى إعادة تجهيز السفينة . وكانت المهمة الأولى تخص جزيرة (سانت هيلينا) في جنوب البحر الأطلسي وكانت مهمة (لافاووريت) فيها حدثاً دخل ذاكرة التاريخ بشكل دائم . وهي عبارة عن نقل رماد (نابليون الأول) الذي توفى في ٥ مايو ١٨٢١م في تلك الجزيرة المهجورة إلى قصره في (لونجوود) .

وكان للفرقاطة الرفيعة الجميلة دور في المهمة الفرنسية الدبلوماسية الأولى في جزر البحرين وكذلك في كفاح (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) .

وفي ٧ يوليو ١٨٤٠م غادر الأمير (دي جوانفيل) ابن الملك (لويس فيليب)، (طولون) على رأس أسطول صغير لجمع الرماد، مكون من كل من الطراد (لا بيل بول) والفرقاطة (لافاووريت) والسفينة الشراعية (لورستي) .

ثم عاد الأسطول إلى (شربورج) في ٣٠ نوفمبر ١٨٤٠م مع رماد (نابليون) الذي كان يسبب الرعب للملوك في كل مكان لحوالي ٢٠ عاماً . وتم نقل الرماد عبر نهر (السين) إلى باريس . وأخيراً وفي ١٥ ديسمبر، وهو يوم بارد جداً، دفن رماد نابليون رسمياً في قبة (أنوالدي) ووقف سكان باريس بصمت واحترام أمام موكب ضم كبار الشخصيات والجنود من حامية باريس . وفي مؤخرة الموكب سار حرس خاص للإمبراطور مكون من ٥٠٠ بحار ذوي خبرة من طواقم (لابيل بول) و (لافاووريت) وهم يسيرون في وقار وراء الأمير (جوانفيل) بعد أن أدوا مهمة الحراسة منذ لحظة استلامهم الرماد القيم من مدفعية الجنرال (ميدلور)، محافظ (سانت هيلينا)، في أحواض (جيمس تاون) حتى دفن (نابليون) في القبة الذهبية في (أنوالدي) التي كانت قد تم تخصيصها من قِبَل (لويس ١٤) وشيدها المهندس المعماري (جولس هاردوينمانسرت) . وقد شهد المراسم صاحب الجلالة ملك فرنسا وجميع أفراد العائلة الحاكمة .

وبينما كان لا يزال تحت تأثير وروعة المراسم المرتبطة بدفن رماد جثمان (نابليون)، غادر طاقم (لافاوريت) تحت قيادة القبطان (ثيوجين فرانسوا بيج) إلى أماكن بعيدة لمغامرات رائعة جديدة . وكانت المهمة التي دامت ثلاث سنوات في المياه الهندية وعبر الخليج العربي ذات أهمية خاصة وجاء شرحها مفصلاً واضحاً في تعليمات صادرة من الملك ووزرائه على السواء . وكانت مبنية على الأوامر الصادرة من (لويس فيليب الأول) وحكومته . وكذلك على تبادل المراسلات بين (فرانسوا جيزوت)، وزير الخارجية، والأميرال (بارون دوبيري) وزير البحرية .

ولما عادت (لافاوريت) سفينة الملك إلى فرنسا في ٦مايو ١٨٤٤م – بعد أن أدت خدمات جليلة) شاء القدر أن تكون هذه الرحلة هي رحلتها الأخيرة . ورسمها الرسام الشهير (فرانسوا روكس) بالألوان بشكل لطيف . وتوجد هذه الصورة في المتحف البحري في باريس . وعقب عودتها إلى (بريست) تم إخراج السفينة – المصنوعة في طولون عام ١٨٢٧م – من الخدمة، كما تم تجريدها من السلاح وشطبها من قائمة السفن البحرية الفرنسية .

وأثناء رحلتها الطويلة أعد القائد (بيج) السجل الشخصي للسفينة . وكتب ملاحظاته الدقيقة باختصار عن أنماط الحياة على ظهرها، ووصف الموانئ التي زارتها . وشملت ملاحظاته المواضيع العلمية والجغرافية والاقتصادية والسياسية وتضمنت آراءه واستنتاجاته . واكتسبت كتاباته أهمية أكثر بسبب الرسوم والصور التي أدخلها بين النصوص .

وقد بذل القائد (بيج) اهتماماً خاصاً بإقامته في البحرين بخلاف الآخرين .

قامت الفرقاطة الملكية الخفيفة (لافاوريت) بزيارة (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، عاهل جزر البحرين وتوابعها، في يناير عام ١٨٤٢م . وكانت هذه المناسبة فريدة لأنها أقامت علاقات دبلوماسية لأول مرة بين فرنسا والجزر الخليجية الشهيرة التي مارست نفوذاً فوق العادة في تاريخ الشرق الأوسط والحضارات العالمية . فقد كانت البحرين بلاد دلمون في الألفية الثالثة قبل الميلاد . وكانت هذه البلاد تفخر بحضارة عريقة ساطعة تعود أساطيرها المنقوشة على الألواح الطينية إلى حضارة (سومر) . وقد دونت البلاد ملحمة (جلجامش) الرائعة الجميلة التي تنافس (الإلياذة) و (الأوديسة) .

وقد أشار (أريان) المؤرخ الإغريقي في القرن الثاني إلى أرخبيل البحرين باسم جزيرة (تايلوس) في كتابه التاريخي عن الإسكندر الأعظم .

ومن الآن فإن زيارة السفينة الجميلة (لافاووريت) التاريخية للبحرين سوف تربط هذه الجزر بملحمة نابليون .

وهكذا من خلال اندفاع جريء في نهاية الجولة، تعانق السفينة الفرنسية مغامرتين تاريخيتين معاً، أي إعادة رماد جثمان نابليون إلى باريس من جهة، وإقامة علاقة دبلوماسية من جهة أخرى .

"لافاووريت في البحرين – ١٨٤٢م"

كانت ظروف الطقس قاسية عندما وصلت لافاووريت إلى شواطئ البحرين صباح الثلاثاء ١٨ يناير ١٨٤٢م بعد أن توقفت قليلاً في كل من مسقط في عمان وفي كنغون وبوشهر وجزيرة خرج على الشاطئ الإيراني .

وقد عقدت مناقشات طويلة حول بعثة الفرقاطة الرفيعة إلى الجزيرة العربية في باريس في قصر (تويلريس)، مقر حكومة لويس فيليب لأن مسألة "الشرق" كانت آنئذ موضع نقاش ساخن في كواليس السفارات الأوروبية منذ القرن الثامن عشر .

تعليمات الحكومة الفرنسية

وقد زادت حدة التوتر الدبلوماسي عندما غادر القبطان (بيج) ميناء (بريست) في ٣ يونيو ١٨٤١م حاملاً معه تعليمات وزارية مفصلة .

التعليمات الصادرة من وزير الخارجية

كتب وزير الخارجية (فرانسوا جيزوت) مذكرة سياسية في ١٢ مايو ١٨٤١م ووجهها إلى الأميرال (بارون دوبيري) وزير البحرية والمستعمرات، لإحاطة قبطان (لافاووريت) علماً بها . وكانت المذكرة عبارة عن ملخص للوضع الدبلوماسي في الخليج

وموقف فرنسا تجاهه، وموقف الملكية الفرنسية نحو ملوك المنطقة وتحركات الإنجليز الذين كانوا يعملون دائماً لتعزيز مكانتهم في تلك المنطقة .

قال وزير الخارجية لوزير البحرية : "عندما خابرتني بأنك اخترت (بيج) قائد الفرقاطة (لافاووريت) ليكون على رأس مهمة استكشافية في الخليج والبحر الأحمر، أعربت عن رغبتك في أن أرسل لك تعليمات لإطلاعه . وأشرح له الجوانب السياسية لمهمته والأمور الخاصة موضع اهتمام وزارة الخارجية . وهذه المذكرة استجابة لطلبك" .

"ليست لفرنسا مصالح سياسية أو تجارية مباشرة في الخليج وبصفة عامة هذا هو الموقف بشأن إيران أيضاً . لأن الصراعات المعارضة لإنجلترا وروسيا فيها قد انتهت . وكما كان متوقعاً، كانت النتيجة لصالح القوة التي بسبب موقعها الجغرافي وتفوقها العسكري تمتعت بثقل أكثر بشكل متواصل في إيران وهي روسيا، فهي الأقوى . وهناك عنصر جغرافي أدى إلى سيطرة الإنجليز على الخليج بشكل طبيعي لأنها قوة بحرية وتحكم الهند . فتسيطر إنجلترا على الأوضاع . ودون شك فإن إنجلترا مصممة على فرض سيطرتها على الخليج لأنه يمهد الطريق لها للوصول إلى نهر (الفرات) . وبواسطة استخدام السفن البخارية في النهر تحاول بريطانيا أن تقيم ممراً يربط مباشرة بين أوروبا والهند . وربما هذا مرتبط باحتلال الإنجليز لجزيرة (خرج) في ١٨٣٨م بحجة نزاعها مع طهران آنئذ . وتشكل جزيرة خرج في الحقيقة مركزاً عسكرياً في الخليج يهدد إيران . وتسيطر (خرج) على (الفرات) وتراقب التجارة مع كل من بغداد والبصرة . وقد حاولنا من جهة أخرى، مرات عديدة أن نقيم علاقات مع إيران عن طريق الخليج دون جدوى" .

"وفي العام الماضي أقامت حكومة الملك، قنصلية في بوشهر حافزاً لإقامة علاقات متبادلة . لكن عرقلت الحكومة الإيرانية هذا المجهود وأفشلت تنفيذ الخطة، مما أدى إلى تجميد الأمور على ما كانت عليه، وربما تستمر على هذا المنوال لمدة طويلة . وإن الحجم التجاري الصغير المتبادل بيننا وبين إيران يمر عن طريق (القسطنطينية) و(أرضروم) و(طوروس) . وهي تجارة غير مباشرة لأن تجار الشرق يشغلونها على وجه الحصر وهم يسافرون إلى (القسطنطينية) لعرض بعض منتجاتنا مقايضة ببعض البضائع الإيرانية التي تصلنا عن طريق سمرنا (أزمير)" .

"وأريد أن أكرر بأننا ليست لنا مصالح مباشرة في الخليج . ورغم ذلك، علينا أن نتابع وندرس تحركات إنجلترا ومبادراتها لتوسعة قوتها . وهذا هو الغرض الرئيسي وراء ابتعاث الفرقاطة (لافاووريت) تحت قيادة القائد (بيج) للمنطقة . فعليه أن يدرس الأوضاع السياسية والعسكرية والتجارية التي أوجدها الإنجليز في المنطقة لصالح أنفسهم، وكذلك الظروف السائدة في خرج والقلعة التي يبنونها في المنطقة، وأوضاع الملاحة في (الفرات) وكل شيء بصفة عامة قد يكون موضع اهتمامنا . وفي رد على مذكرة (جيزوت) قال الأميرال (بارون دوبين) وزير البحرية في ٢٢ مايو ١٨٤١م مؤكداً تعليماته للقائد (بيج) أن يلتزم بتنفيذ تعليمات وزير الخارجية بدقة . كما طلب منه أن يدون سجلاً للسفينة ويرسل التقارير المفصلة لباريس بانتظام . وأضاف وزير البحرية من جانبه، نصا لـ "اتفاقية لندن" المبرمة في ١٥ يوليو ١٨٤٠م حول "مسألة الشرق" (عرقلت إنجلترا متعمدة انضمام فرنسا إلى الاتفاقية) . وطلب وزير الحربية من قائد (لافاووريت) أن يتجاهل الاتفاقية ويتصرف بلطف وعطف مع الأطراف الذين وقعوا عليها خاصة مع الإنجليز إذا صادف وقابل أحداً منهم ."

"تبحر الفرقاطة (لافاووريت) إلى جزيرة (بوربون) وتمكث فيها برهة للتزود بالماء والمؤونة . ومن ثم تتجه إلى كل من البحر الأحمر والخليج وعند العودة إلى بحر الصين تقوم بمهمتها في هذه الأماكن . وحين ينفذ القائد التعليمات الملحقة الصادرة من وزير الخارجية . وعقب الوصول إلى (بوربون) عليك أن تنقل هذه التعليمات إلى نائب الأميرال (دي هيل) وهو محافظ المستعمرة . وتطلب منه النصيحة نظراً لأنه واسع الاطلاع عن هذه الأماكن، وكثير الاتصال بالهند والبحر الأحمر والخليج . وعليك أن تنفذ الأوامر التي تتلقاها منه ."وأثناء رحلته، على القائد (بيج)، إن أمكن، أن يأخذ بعين الاعتبار فرص إرسال بعثات تجارية إلى الولايات الجنوبية في إيران" .

تعليمات وزير البحرية

"وفي هذه الحملة الشوقة، عليك أن تسجل كل ما شاهدت ولست في مجالات اللاحة والتجارة والعلاقات مع البلدان التي هي موضع دراستك . وأوصيك بأن تنتهز كل فرصة لتعد تقريراً وترسله لي تعالج فيه تحركاتك وعملياتك التي قمت بها أثناء رحلاتك ."

"(...) إنك على علم بأن فرنسا امتنعت عن الانضمام إلى الاتفاقية التي وقعت عليها أربع دول في ١٥ يوليو، وفي مثل هذه الظروف لا تعتبر فرنسا دولة حليفة لتلك الدول . ورغم ذلك تبقى فرنسا دولة صديقة لها فيجب عليك أن تتعامل مع قادة سفن تلك الدول بلطف مثلما كان الوضع قبل إبرام اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠م ."

"لقد عهدت إليك بمهمة ذات أهمية بالغة وإني متأكد بأنك سوف تقوم بواجبك بأحسن وجه لتفيد القوات البحرية من ناحية وتستحق الفخر والاعتزاز بما قمت به ."

إن مهمة (لافاووريت) تحمل أهمية بالغة في منظور وزير البحرية في وقت تبلورت فيه "مسألة الشرق" مما أثار اهتياجاً في أوساط السفارات الأوروبية نتيجة للتوقيع على اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠م . ومنعت حكومة (اللورد بالمرستون) فرنسا متعمدة عن المشاركة في هذه المبادرة الدبلوماسية . وقد أدى الموقف البريطاني إلى تأزم العلاقات بين لندن وباريس غير أنها في بادئ الأمر كانت ودية من جهة رسمية .

"مسألة الشرق"

كان المراد من اصطلاح "مسألة الشرق" الإشارة إلى كافة القضايا المنبثقة عن اضمحلال الإمبراطورية العثمانية وإمكان محوها كلية . فواجهت الدبلوماسية الأوروبية هذه المسألة منذ القرن الثامن عشر وفيما بعد . وإن التزامن بين الحركات الوطنية المتفاقمة في البلقان والتنافس بين القوى الكبرى قد أضر بمصالح الباب العالي العثماني، وخلق جواً لإثارة "مسألة الشرق"، وامتد هذا الصراع في وقت لاحق للمناطق الأخرى في الإمبراطورية خاصة الأقاليم العربية تحت الاحتلال العثماني . وما بقي من الإمبراطورية عرف باسم العضو الفاشي في المجتمع الأوروبي . وبدأت مجابهات داخلية ما بين كل من النمسا وروسيا وإنجلترا وفرنسا .

وكانت الولايات العثمانية في (البلقان) المتاخمة للنمسا ذات أهمية بالغة لـ (النمسا) التي كانت تريد أن تعرقل تقدم روسيا نحو المياه الدافئة .

وكانت روسيا دائماً تنتابها فكرة الوصول إلى المياه الدافئة . وكانت تحاول أن تفتح لها ممراً من المضايق إلى البحر المتوسط والمحيط الهندي عن طريق الخليج بواسطة ممارسة ضغط أو فرض سيطرة على القسطنطينية .

ومن جهة أخرى، شعرت الحكومة الإنجليزية بأن أي انتهاك لاستقلالية الإمبراطورية العثمانية يهدد الطريق إلى الهند . فكان لابد لحكومة إنجلترا من أن تسيطر على البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي والمناطق الحدودية دون أن تسمح لأية قوة أوروبية خاصة فرنسا أن تكسب موطئ قدم في المنطقة .

اتفاقية لندن (١٥ يوليو ١٨٤٠م)

كان الوئام الدولي بين إنجلترا وفرنسا في أزمة لأن الحكومتين كانتا مضطرتين لإرضاء المشاعر الوطنية لبعض الأفراد الغاضبين الذين كانوا تحت تأثير التنافس التقليدي بينهما . وإضافة إلى ذلك، كان (لويس فيليب) شديد الحرص على الدخول إلى زمرة الملوك المستقلين بإقامة علاقات ودية مع ملوك أوروبا .

وقد أثارت "مسألة الشرق" أزمة أخرى مما جعل الشقاق بينهما رسمياً . عندما هزم محمد علي حاكم مصر، الجيش التركي المهاجم، واحتل إقليم آسيا الواقع بين البحر الأسود والبحر المتوسط مرة أخرى (١٨٣٩م) . فقررت القوى الأوروبية التدخل في الأمر لتفرض الأمن والسلام لكن حكومتي فرنسا وإنجلترا لم تتفقا على الشروط التي يجب أن تفرض على المحاربين . وكانت فرنسا تؤيد حاكم عـام مصر قائد الجانب العربي المفضل . وكان محمد علي قد اختار فعلاً عدداً من المستشارين الفرنسيين كالمهندسين والعلماء للمساعدة في تنمية بلاده .

غير أن رئيس الوزراء البريطاني (اللورد بالمرستون) منع فرنسا من المشاركة في المفاوضات السرية الدائرة مع القوى الكبرى الأخرى (النمسا وبروسيا وروسيا) ذات العلاقة بالموضوع . ووصلت هذه البلدان إلى اتفاق معروف بـ "اتفاقية لندن" تم التوقيع عليها في ١٥ يوليو ١٨٤٠م . ووضعت الاتفاقية الشروط الإلزامية التي تفرض على محمد علي . ومثلما حدث سابقاً في ١٨١٥م امتنعت فرنسا عن الانضمام إلى التحالف . وهكذا اتخذت "مسألة الشرق" شكل أزمة أوروبية حادة .

وشملت بنود الاتفاقية تعهد الحكومات الأربع بالمساهمة في إجبار حاكم مصر على أن يوافق على المعاهدة ويشرح فيها طبيعة علاقاته مع الباب العالي (الإمبراطورية العثمانية) ويذكر حدود الولايات التي كان الباب العالي يمنحها له .

وإذا رفض ذلك يجب ممارسة ضغط صارم عليه "بناء على طلب من السلطان العثماني" . وإذا جرؤ الحاكم المصري على مقاومة القسطنطينية في البر أو البحر فيأخذ الحلفاء، بناءً على دعوة من السلطان، ما يلزمهم من الخطوات لحماية مضيق البوسفور والدردنيل ضد أي هجوم . وكذلك يفرض حصار صارم حول مصر لمنعها من استخدام أي مخرج بحري للوصول إلى سوريا .

وكانت اتفاقية لندن ، نتيجة سياسة (بالمرستون) التي اتبعها منذ ١٨٣٣م ونفذها دون هوادة، في حين كانت سياسة فرنسا ومصر غير متماسكة . كما كانت سياسة (محمد علي) متزعزعة وغير دقيقة . ومقابل ذلك كان (بالمرستون) مقتنعاً بما يريده . ولم يرغب (بالمرستون) في مشاركة أي طرف في كسب الغنائم بانهيار الدولة العثمانية وخاصة في امتلاك بقايا الأقاليم العربية كفلسطين وبلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية . غير أن محمد علي كان يؤمن باستقلال البلاد العربية وكان يمثل خطراً للمخططات الإنجليزية .

ووضعت "اتفاقية لندن" في صيغتها النهائية دون علم فرنسا وكانت معادية لفرنسا وحليفتها مصر . وكان الغرض منها الحيلولة دون انهيار الإمبراطورية العثمانية . ووضعت الاتفاقية صيغة لحرب علنية مكشوفة في حين حاول (لويس فيليب) تفادي خطر الحرب . وفي الحقيقة في ١٨٤٠م اعتبر الملك الفرنسي، رئيس المجلس، وزير الخارجية (أدولف تيرس) ميالاً للغاية إلى القتال فعين (فرانسوا جيزوت) الذي كان سفير فرنسا في لندن) ليحل محله بسبب موقفه الودي نحو إنجلترا .

وكان هذا هو موقف السفارات الأوروبية تجاه الشرق الأوسط . ولكن عندما وصل القائد (بيج) إلى البحرين قرر أن يدرس الأوضاع عن كثب من جديد في ضوء "مسألة الشرق" الشهيرة .

البحرين في عام ١٨٤٢م

وفي بيئة ضبابية للرغبات المتضاربة، قام القائد (بيج) بزيارة (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة)، عاهل الجزر البحرينية وتوابعها . وجاءت زيارة القبطان الفرنسي للبحرين في ١٨٤٢م في وقت حرج للغاية في الحياة السياسية للدولة التي تحكمها أسرة آل خليفة .

كان (الشيخ عبد الله بن أحمد) رجل دولة وسياسياً محنكاً داهية وله خبرة ٤٧ عاماً في إدارة الحكم . وانتسب إلى سلالة حاكمة من قبيلة عربية عريقة تسمى (العتوب) ويرجع أصل أسرة آل صباح الحاكمة في الكويت أيضاً إلى العتوب .

العتوب

وفي أواخر القرن السابع عشر كانت الصحراء تتعرض لموجة من الجفاف مما أدى إلى هجرة قبيلة العتوب من وسط الجزيرة العربية واستيطان الساحل الخليجي بالقرب من مدينة قرين (الكويت اليوم) . وكان ذلك الإقليم آنئذ تحت حكم بني خالد . وقبل سنين وكان رئيسهم الشيخ براك الخالدي قد شيد قلعة صغيرة بالقرب من مدينة القرين وتعني الكويت القلعة الصغيرة . والشخص الذي ذكر الكويت لأول مرة هو الدكتور إدوارد آيفيس، وأشار إليها باسم "قرين" في ١٧٥٨م . والرحالة الألماني الهولندي (كارستن نيبور) كان أول من استخدم كلمة الكويت في خريطة جغرافية (١٧٦٥م) .

وقد رحب بنو خالد بالوافدين الجدد بحماس وسمحوا لهم بمزاولة التجارة وصيد السمك . وكانت قبيلة العتوب تتكون من ثلاث أسر رئيسية هي : آل صباح وآل خليفة وآل جلاهمة .

آل خليفة

وفي عام ١٧٦٦م هاجرت عشيرة آل خليفة من قبيلة العتوب وعلى رأسهم (الشيخ محمد بن خليفة)، من الكويت واستوطنت الزبارة على الساحل الغربي لقطر ومارست تجارة رابحة واسعة . وهكذا بدأ التاريخ الحديث في المنطقة وكان آل خليفة مجتهدين وزادوا قوة واعتزازاً في الزبارة، وازدهرت تجارتهم وأنشأ آل خليفة أسطولاً بحرياً كبيراً . وحولوا قريتهم إلى مدينة كبيرة مزدهرة وبنوا فيها قلعة باسم قلعة مرير . توفى (الشيخ محمد بن خليفة) في الزبارة في ١٧٧٦م وترك وراثته لابنه (الشيخ خليفة بن محمد) لكنه توفي وهو يقوم بفريضة الحج في مكة في عام ١٧٨٢م فنقلت السلطة إلى أخيه (الشيخ أحمد بن محمد) المعروف بـ (أحمد الفاتح) وبعد قليل انضم إليهم أقاربهم (الجلاهمة) في الزبارة .

وسرعان ما نشبت خلافات داخلية بينهم، وهاجر (الجلاهمة) إلى (الرويس) حيث لجأوا إلى القرصنة تحت قائد قوي اسمه (الشيخ رحمة بن جابر) . ومات (رحمة) في ١٨٢٦م . وفي وقت لاحق قضى آل خليفة وحلفاؤهم على (الجلاهمة) تماماً ولعبت القرصنة دوراً هاماً في تاريخ المنطقة .

أدى الاحتلال الإيراني للبصرة من ١٧٧٦م إلى ١٧٧٩م إلى تدفق البضائع إلى (الزبارة) التي أصبحت مركزاً للتجارة وصيد اللؤلؤ في شرق الجزيرة العربية . وتصدت (الزبارة) لهجمات إيرانية متعددة . وفي أغسطس ١٧٨٣م تحالف (الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة) مع العتوب في الكويت (أي آل صباح) ونظم حملة ضد الحامية الإيرانية في البحرين التي كانت تحت الحكم الإيراني آنئذ . وأصبح (الشيخ أحمد بن خليفة) أول عاهل عتوبي على البحرين وسمي (أحمد الفاتح)، غير أن مقر حكم آل خليفة ظل في الزبارة في قطر وسكن فيها (أحمد بن محمد) حتى توفى في ١٧٩٦م .

الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة

وعند وفاته نقل (الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة) سلطاته إلى ابنيه مشتركين، فأصبح (الشيخ سلمان بن أحمد) و (الشيخ عبد الله بن أحمد) حاكمين للبحرين معاً .

لكن الشيخ (سلمان بن أحمد) توفى في ١٨٢٥م وترك سلطته إلى ابنه (الشيخ خليفة بن سلمان) الذي شارك عمه في الحكم . وتوفى (الشيخ خليفة بن سلمان) في ١٨٣٤م . ثم تتابعت الأحداث حتى أصبح (الشيخ عبد الله بن أحمد) عاهل البحرين الوحيد . وفي هذه الفترة من ١٧٨٣م إلى ١٨٣٤م ازدهرت دولة آل خليفة اقتصادياً مما أثار الحسد بين جيرانها وكذلك إنجلترا . كانت البحرين قد أصبحت مركزاً ريادياً في تجارة اللؤلؤ كما امتلكت أسطولاً كبيراً لصيد اللؤلؤ . وراقبت البحرين تجارة اللؤلؤ بشأن اللآلئ التي يتم صيدها في الساحل الجنوبي للخليج – أي (القطيف والبحرين وقطر وأبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة) وفي بحر عمان (دبا والفريحة وخورفكان وصحار ومسقط) .

وفي فترة حكمه الطويل اهتم (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) بموضوعين هامين : أولاً النزاعات العائلية مع أبناء عمه من فرع (الجلاهمة) خاصة بالمؤامرات التي دبرها (رحمة بن جابر) . وثانيا، مواجهة التهديدات الخارجية ومحاولاتها لفرض سيطرتها على الدولة الخليفية الغنية متمتعة بموقعها الاستراتيجي .

رحمة بن جابر

استوطن الجلاهمة خور حسان (تسمى الخوير اليوم في قطر) واكتسبوا قوة ونفوذاً في قطر في ١٨٠٩م تحت قيادة القائد الشهير الماكر (رحمة بن جابر) .

كان (رحمة) بن (الشيخ جابر الجلاهمة) ينتسب لفرع من قبيلة العتوب، ولديه كراهية بالغة لأبناء عمه من آل خليفة . وبدأت خصومته عندما طرد عمداً من البحرين وحرم من التمتع بالانتصار على الحامية الإيرانية وفرض آل خليفة سيطرتهم على الأرخبيل فصمم رحمة على الانتقام من أبناء عمه، وأعد أسطولاً وقوة عسكرية ليشن حرباً ضد مصالح آل خليفة وكسر قوتهم في البر والبحر على السواء . ودخل في تحالفات بشكل مكشوف أو غامض مع الأطراف حسب الظروف ليخدم أغراضه .

وفي ١٨٠٩م، أيد رحمة، أمير نجد في غزوه للبحرين . وفي ١٨١٦م أيد الهجوم العماني على البحرين وقطر غير أن الجيش العماني هزم وأصبح الجيش النجدي حليفا لآل خليفة ودمر قلعة (رحمة) في الدمام واضطر (رحمة) إلى الهروب إلى بوشهر في إيران .

وفي ١٨١٨م أذن (إبراهيم باشا) لرحمة بالإقامة في الدمام اعترافاً بمساعدته للقوات المصرية التي احتلت نجد والإحساء . وفي ١٨١٩م ساعد (رحمة) الإنجليز في غزوهم لقلعة رأس الخيمة . ورغم قلة قواته تحالف (رحمة) مع محافظ فارس الذي كان ينوي غزو البحرين . غير أنه لم يبق لديه إلا ثلاث سفن اصطدمت واحدة منها بالصخور وغرقت .

وفي ١٨٢٤م كان (رحمة بن جابر) لا يزال غاضباً من آل خليفة ورغم ذلك وقع على اتفاقية صلح معهم غير أنها لم تدم طويلاً . وفي معركة بحرية مع الأسطول العتوبي



الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة

حوصر (رحمة) حتى وصل إلى درجة اليأس لكنه رفض أن يستسلم ونسف سفينته ونفسه بالبارود في ١٨٢٦م وكان على متنها ابنه (٨ سنوات) .

الأطماع الخارجية

وفي فترة حكمه أبدى (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الحكمة والحنكة الدبلوماسية في إفشال المحاولات الخارجية لاحتلال البحرين، وطرد أسرتها الحاكمة وسلب استقلالها . وجاهدت جيرانها وإنجلترا للتدخل باستمرار في شئونها الداخلية .

تولى (الشيخ عبد الله بن أحمد) السلطة منذ ١٧٩٦م . واكتسب قدراً ملحوظاً من الخبرة الدبلوماسية والعسكرية والبحرية . وتمتعت البحرين بهذه الميزات مع الموقع الاستراتيجي والازدهار مما أثار جشع كل من العمانيين والموحدين السلفيين من نجد والإنجليز على السواء .

أولاً، طمع سلطان مسقط في أقاليمها . وفي ١٧٩٩م احتلت قوات (سلطان ابن أحمد البوسعيد) البحرين . وتحالف آل خليفة مع العاهل السلفي في نجد، للتخلص من الغزاة ولكن لم يستطيعوا إخراج العمانيين إلا في ١٨٠٧م .

وقد أصبحت الظروف معقدة لآل خليفة عندما رفض السلفيون المتشددون المنتصرون إعادة الحكم إلى أسرة آل خليفة في البحرين . وقرروا البقاء في الأرخبيل لأسباب دينية وعينوا محافظاً عليها من قِبَلهم . ونفوا آل خليفة إلى (الدرعية) . وفي ١٨٢٠م طرد آل خليفة السلفيين من ممتلكاتهم بمساعدة القوات الأنجلو – إيرانية .

هاجم العمانيون البحرين في ١٨١٦م ومن ثم في ١٨٢٨م دون جدوى . وفي ١٨٢٩م اضطر سلطان مسقط، (سعيد بن سلطان البوسعيد) للاعتراف رسمياً باستقلال الأرخبيل البحريني .

وتابعت إنجلترا عن كثب النزاعات الدائرة مابين العرب والعرب في الخليج وكانت حريصة على أن تصبح الحامي الوحيد للدول الخليجية وخاصة للبحرين كهدف رئيسي . وفي الحقيقة، منذ عام ١٨١٤م كانت إنجلترا تمهد الطريق لتحقيق هذا الهدف عن طريق المقيم السياسي . وفي تلك السنة أقام (الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة)،

الحاكم المشترك مع أخيه عبد الله بن أحمد للبحرين علاقات مع المقيم السياسي البريطاني . وخابر المقيم، آل خليفة بأن بريطانيا ستبقى محايدة إذا هاجم العمانيون البحرين . ومقابل ذلك التزمت الأسرة المالكة بعدم ممارسة أي عمل قد يضر بمصالح الإنجليز .

وفي فبراير ١٨٣٠م وقع آل خليفة على اتفاقية صداقة عامة أو اتفاقية حسن سلوك لعام ١٨١٤م مع شركة الهند الشرقية لحماية استقلال الأرخبيل البحريني .

وفي ١٨٣٣م هاجم (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الأمير السلفي في نجد . واستولى على عدة مدن على الساحل الشرقي للجزيرة العربية (دارين وتاروت وسيهات والقطيف والدمام) . غير أن المشاكل الداخلية في الأرخبيل منعته من فرض سيطرته الكاملة . ودبر ثلاثة من أبنائه العشرة تمرداً ضده لانتزاع السلطة . وذهبوا إلى الحويلة في شمال قطر . وأرسل أبوهم حملة لكبح التمرد تحت قيادة (الشيخ محمد بن خليفة)، حفيد ابن أخيه . وتم إخماد التمرد فعلا كما تم إعفاء الأبناء المتمردين .

وفي هذه الأثناء كانت مصر، بتأييد من سلطان مسقط، تريد التدخل في شئون البحرين الداخلية . لكن الإنجليز حذروا السلطان من أي تدخل في شئون البحرين . وألغيت مطالب (محمد علي) على البحرين عن طريق اتخاذ القوى الأوروبية خطوات مشتركة ضده في سوريا .

وفي ١٨٢٥م توفى (الشيخ سلمان بن أحمد) الحاكم المشترك ولم يبق سوى (الشيخ عبد الله بن أحمد) كحاكم وحيد لكنه طموحات حفيد ابن أخيه (محمد بن خليفة آل خليفة) المنتصر في معركة (الحويلة) . واجه ورغم ذلك نعم (الشيخ عبد الله بن أحمد) بفترة حكم آمنة لثمان سنوات مقبلة لأن حفيد ابن أخيه بقي بعيدا عن مسرح الأحداث طوعاً ولو مؤقتاً .

جاء القبطان (ثيوجين بيج) ليزور العاهل البحريني، (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) الذي كانت فترة حكمه على وشك الانتهاء بعد بضعة شهور من هذا اللقاء الدبلوماسي في ١٨٤٢م عقب السنوات الثماني الهادئة .

وفي صيف عام ١٨٤٢م، بعد قليل من مغادرة الفرقاطة (لافاووريت) استعد (الشيخ محمد بن خليفة) بدعم من بريطانيا للقتال ضد (الشيخ عبد الله بن أحمد) .

منذ القرن الثامن عشر، كانت إنجلترا نشطة في فرض مراقبتها على ممر إلى جزر الهند الشرقية . وفي ١٨١٤م انتزعت (رأس الرجاء الصالح) من الهولنديين . وفي ١٨٢٠م فرضت اتفاقية السلام على حكام دول ساحل الخليج العربي (أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والبحرين) لوضع حد للقرصنة في الخليج . ووقعت البحرين على معاهدة الصلح في ١٨٢٤م . وفي ١٨٣٩م هزم الإنجليز سلطان عدن واستولوا على عدن .

ونظراً لأن الإنجليز كانوا أصلاً مهتمين بمصالحهم الخاصة فحسب، تحالفوا ضد الحركة التي تزعمها (محمد علي)، الحاكم المصري الذي كان يعمل جاهداً للتخلص من نير العثمانيين وتأسيس أمة عربية كبيرة . فوقعت كل من مصر والبحرين على اتفاق في ١٨٣٩م . وفضل (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) دعم العروبة على الصلح مع بريطانيا .

وأغضبت الاتفاقية المبرمة بين (الشيخ عبد الله بن أحمد) و (محمد علي) الإنجليز الذين رأوا فيها خطراً مباشراً لنفوذهم في الخليج . وأصبح الوضع خطيراً أكثر بسقوط موقع استراتيجي على الساحل الإيراني بالقرب من شط العرب، أي جزيرة خرج . وشعر الإنجليز بأن البحرين خرقت بنود معاهدة ١٨٢٤م . وحاولت بريطانيا تخويف الحاكم البحريني باتخاذ الخطوات حفاظاً على مصالحها أو على الأقل تجنباً لعرقلة جهودها في تحقيق أهدافها .

وبدأ الإنجليز أولاً بنقل استيائهم إلى حاكم البحرين . وأرسلوا مبعوثاً له لكن دون جدوى . ثم أوفدوا له (الكابتن هينل)، المقيم السياسي في بوشهر بغرض إقناعه . ولم يعتن (الشيخ عبد الله بن أحمد) بالمبعوث البريطاني ومن ثم رفض موقف (هينل) الذي بدأ لطيفاً ثم لجأ إلى لهجة التهديد .

غير أن حاكم البحرين الكبير، المحنك المعروف بذكائه ودبلوماسيته رفض التهديدات الموجهة إليه والموقف العدائي الصارم الإنجليزي نحوه . وصرح الشيخ بهدوء وصراحة بأنه بصفته عربياً ومسلماً، كان عليه قلباً وقالباً أن يتحالف مع الشعوب العربية في المنطقة خاصة مصر التي أيدت ذلك .

ودفع ذلك الحكومة البريطانية إلى إيجاد حلين متطرفين لإفشال سياسته . **أولاً**، بوضع حد لسياسة (محمد علي) . **وثانيا**، إبعاد حاكم البحرين عن الحكم .

كان اللورد (بالمرستون) مهتماً بشكل خاص بقضية البحرين، فدبر حلاً ملائماً على المستوى الدولي ورأى أن أكثر الطرق فاعلية لإفشال الاتفاقية المصرية البحرينية هو في عزل (محمد علي) عن المسرح الدولي وإضعاف نفوذه على العرب . ومن أجل ذلك كان من الضروري تجنب وتجاهل فرنسا، وحشد القوات التي كانت حريصة على إرضاء الباب العالي لأسباب مختلفة . وهذا هو التفسير وراء توقيع كل من إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا على "اتفاقية لندن" في ١٨٤٠م . ولم ترسل لفرنسا أية دعوة لحضور جلسة التوقيع بل إنها لم تبلغ بها .

وكان الغرض الأساسي لهذه الخطوة الدبلوماسية هو ضمان وحدة الأراضي العثمانية خاصة الأقاليم العربية منها . وتحدت الاتفاقية مطالب (محمد علي) في الأقاليم العربية في الإمبراطورية العثمانية . وأضعفت الحركة نحو تكوين كيان عربي قوي . وكانت الخطة السياسية للإنجليز وحلفائهم تستهدف كسر القوة السياسية المصرية التوسعية . وقد نجح الإنجليز وانهزمت مصر في معركة (نزيب) في ١٨٣٩م، وسحبت قواتها من كل من نجد والإحساء في ١٨٤٠م، وانهزمت قواتها في سوريا في أكتوبر ١٨٤٠م، مما وضع حداً لطموحاتها التوسعية . وتم تقويض الاتفاقية المصرية البحرينية من الداخل .

وكان الحل الآخر البريطاني هو استبدال حاكم البحرين فكان لابد من عزل (الشيخ عبد الله بن أحمد) من الحكم لجرأته ومعارضته للمخططات الإنجليزية .

بذر الإنجليز بذور الفتنة بين أفراد العائلة واستغلوا شيخوخة (الشيخ عبد الله بن أحمد) وفي يونيو ١٨٤٢م – الموافق جمادى الأولى ١٢٥٨هـ – أي بعد ستة شهور فقط من زيارة السفينة (لافاووريت) تعرض (الشيخ عبد الله بن أحمد) لهجوم من قِبَل حفيد ابن أخيه (محمد بن خليفة)، الذي كان يسكن المنامة . لكن الشيخ المسن انتصر بسبب القوة البحرية والبرية الأقوى التي كانت لديه، وانسحب (الشيخ محمد بن خليفة) إلى قطر من يناير إلى أبريل في عام ١٨٤٣م حيث جند فيها مزيداً من الجند والحلفاء له، وفي أبريل ١٨٤٣م هاجم المنامة وحاصر قلعة أبو ماهر حيث كان (الشيخ عبد الله بن أحمد) محاصراً فيها في حين كان أبناؤه محاصرين في قلعة عراد . وانهزم (الشيخ عبد الله بن

أحمد) واستسلم وسمح له أن يغادر مع أفراد عائلته إلى الدمام، الإقليم الوحيد الذي كان لا يزال فيه ابنه، (الشيخ مبارك بن عبد الله) وفي وقت لاحق توجه (الشيخ عبد الله بن أحمد) إلى ساحل إيران ومن ثم إلى الكويت بحثاً عن مساندة قريبه الأمير، وعاد إلى نجد لنفس الغرض، وأخيراً توجه إلى مسقط للحصول على دعم من (سلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي) وتوفى (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) في مسقط في عام ١٨٤٨م .

واجه (الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة) أوضاعاً مضطربة منذ توليه الحكم في عام ١٨٤٣م وفي عام ١٨٦٨م فر إلى قطر وقام بغزو البحرين، وقُتل أخوه (علي) قرب قلعة الرفاع في ١٨٦٩م . واستعاد الحكم مرة ثانية . ثم ألقى ابن أخيه القبض على (الشيخ محمد بن خليفة) ونفاه الإنجليز وتوفى في ١٨٩٠م .

وكانت هذه الأحداث السياسية المعقدة تجري حينما كان (القائد بيج) يزور شواطئ البحرين وعاهلها . وكانت الزيارة الودية لسفينة فرنسية دون نوايا قتالية تبعث بموجة من السرور في قلب (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) وسجل (القائد بيج) هذه الملاحظة في سجل السفينة . ولاحظ قائد (لافاووريت) دهشة العاهل البحريني لعدم تواجد فرنسا في الخليج للتصدي للمخططات التوسعية للقوى الأخرى . وقد ألقى العاهل المسن نظرة طويلة إلى الضابط الفرنسي وقال بكل صراحة ولو بكآبة للقائد (بيج) :

" كيف يمكن لفرنسا التي كانت قوية تحت حكم (نابليون) لدرجة بث نفوذها عبر العالم كله، أن ترجع إلى الوراء حتى لم يعد أحد يتكلم عن فرنسا ؟ وكيف يُترَك الإنجليز يبحرون في هــذه المياه دون عرقلة ويغزون جزيرة أو ولاية لضمها إلى إمبراطوريتها ؟

"أنت أول قبطان لملك فرنسا ألاقيه . وسفينتك أول سفينة تزورنا . ودعني أرحب بك ! عندما يأتي الإنجليز، لا أحد منهم يدخل إلى البرج . وإنما أستقبلهم خــارج الباب . لكنك أرحب بك في محل إقامتي الخاصة . وأرحب بك كصديقي العزيز . وأود أن أكون صديقاً لفرنسا" .

ومهد هذا اللقاء الودي الطريق لإقامة أول علاقات دبلوماسية بين البحرين وفرنسا في يناير ١٨٤٢م . والرواية التالية والمأخوذة من سجل القائد (بيج) تشرح تفاصيل هذه المهمة الدبلوماسية الأولى الناجحة .



الشيخ محمد بن خليفة



الشيخ علي بن خليفة

مقتطفات من سجل القائد البحري (بيج)

البحرين

١٨ يناير – ٢١ يناير ١٨٤٢م

الثلاثاء ١٨ يناير ١٨٤٢م

شاهدت أرض وجبال البحرين في الفجر . وتوجهت إلى المرساة بقليل من الأشرعة وسبرت الأعماق في طريقي . وتغير العمق بالتدريج من ٦٠ إلى ٤٢ قدماً حيث ألقيت المرساة فيه .

كان الطقس مخيفاً واشتدت الرياح الشمالية الغربية والسماء داكنة . وأشار جهاز قياس الضغط الجوي إلى ٠,٧٦٥ متر مع رياح معتدلة . وأنزلت الونش والقوارب ونزلت على الشاطئ في قاربي . ووجدت قاربي غير ملائم في الظروف السائدة بحراً وجواً .

تفاصيل المرسى :

قلعة في ٣٣٠ درجة غرباً .

خط العرض المراقب : ٢٦,٢٢ شمالاً .

العمق : ٤٢ قدماً، الرمال البيضاء وبها أصداف .

ذهبت إلى جزيرة (المحرق) حيث يقيم الشيخ عبد الله بن أحمد عاهل الجزيرة عادة . وتحاصر المحرق سلسلة صخور كبيرة مررنا بها إلى الغرب للوصول إلى المدينة التي تقع على قطعة من الأرض في الجنوب .

وصلت إلى الشاطئ مع البحارة وتوجهت إلى القلعة[1] التي تقع في أقصى الجنوب بقاعدتها في البحر . ومن حسن الحظ كان الشيخ موجوداً ولما وصلنا إلى أسفل القلعة

عرفنا بأن الشيخ كان يؤدي الصلاة في المسجد وسيعود . وأنهم بسطوا الفرش (الحصران) لنجلس عليها في انتظار الشيخ . وكان معي مرشد السفينة وضابط آخر .

ووصل الشيخ واتجه نحونا وهو يسير سيراً بطيئاً . وكان يمشي على الشاطئ مع بعض الحراس . وقدمنا أنفسنا له ، وآنئذ كان في نفس المكان سفينة من نوع "بغلة" تحت التصنيع فاستفدنا من الاطلاع على صناعة السفن أثناء انتظارنا لعودة الشيخ الذي عاد بعد ساعة . وكنا على علم بتصنيع البغلة بخشب الساج تسد حزوز السفينة دون تعب . وكان شكل الكعب في الوراء عالياً بشكل حفظ الدفة من أن تمس الأرض دائماً ما بين الصخور والركامتين الساحليتين في تلك المنطقة . وكان على جنبي مقدم السفينة قطعتا خشب قويتان لتكونا متسابقتين . وكان كل شيء على ما يرام من حيث التصنيع . وكانت منتشرة على الرمال أربعة مراكب للمدافع البحرية وبجانبها بعض المدافع المتآكلة والمدفونة جزئياً بين العشب البحري وأجزاء الصدف .

تكلم (حسن) وهو أخو (الشيخ عبد الله بن أحمد) أولاً . لكن تقديمه في نظري لم يكن واضحاً . وتركنا الشيخ واقفين . فقلت له بصراحة هويتي أنا وأضفت قائلاً بأني بصفتي قائد سفينة فرنسية حربية تمر بالبحرين، كان علي أن أقدم احتراماتي للشيخ الشهير الجليل (عبد الله بن أحمد) . فنظر إلى مستغرباً ومر بأصابعه في لحيته ثم قال لي وهو يقرع على صدري بسبابته اليمنى : أنت قبطان سفينة لملك فرنسا ! فرنسا! فرنسا!؟ وكرر كلمة فرنسا باعجاب وركز على عينيه الصغيرتين اللامعتين رغم شيخوخته .

ثم أمسكني بزر من أزراري وقادني نحو باب قلعته الحديدي بخطوات شباب سريعة وهو يأمر حراسه أن يبقوا بعيدين عنه . وفتح الباب أمامنا ولم يكن الفناء إلا أكواماً من الأسمدة وأدوات الهدم . وللوصول إلى منصة القلعة، صعد الشيخ على جزء منهدم من جدار وكان على رأس الجدار سلم معلق بشكل خطير بواسطة حبل . وصعد الشيخ السلم ببطء . وقد تابعناه في هذه العملية المحفوفة بالمخاطر . ولم تكن القلعة مكونة إلا من سور مربع وعلى جنبيه برجان دائريان . وعلى رأس كل برج مخبأ أو ملجأ عبارة عن منصة خشبية معرضة للرياح منهدمة متآكلة مفروشة بحصيرة واحدة فحسب . وكان هذا هو المجلس الذي رحب بنا الشيخ فيه .



الكابتن بيج قائد سفينة الزيارة

وقد رتب الشيخ لنا أشرعة بغلة لنجلس عليها . وقدم لنا القهوة والغليون للتدخين[٢] .

وسألنا عن التفاصيل الدقيقة عن ملك فرنسا . كم عمره ؟ وما طوله؟ وهل هو ملك قوي ؟ وهل له سلطة ؟ وهل هو في الحكم من مدة طويلة ؟ كم سفينة عنده وكم عدد الجنرالات والجنود عنده ؟ وسألني الشيخ كيف حدث، أن فرنسا رغم أنها كانت دولة قوية تحت حكم أحد ملوكها[٣] وبثت نفوذها عالياً عزلت نفسها لدرجة أن لا أحد يسمع اسمها اليوم ؟ وكيف تسمح للإنجليز أن يتقدموا أينما شاءوا في المياه الخليجية كل يوم ويضموا أية جزيرة أو إقليم إلى إمبراطوريتهم ؟ فشرحت له أبعاد سياسات أوروبا كي يفهم عظمة فرنسا .

أنت أول قائد من قادة ملك فرنسا ألاقيه هنـا . وسفينتك أول سفينة فرنسية تزورنا . مرحباً بك . لما يأتي الإنجليز، لا أحد منهم يدخل إلى البرج . وألاقيهم خارج الباب لكني أرحب بك في سكني الخاص . وأرحب بك كصديق عزيز وأود أن أكون صديقاً لفرنسا ."

وسألني ما إذا كنت سأخبر الوزير الفرنسي بالترحيب الذي لاقيته وأنقل له ملاحظاته وهل يعرف ملك فرنسا اسم الشيخ عبد الله ؟ فبعثت فيه بموجة من الفرح عندما سردت له تاريخه نفسه . وتكلمنا طويلاً كلاماً شيقاً رغم معرفتي القليلة باللغة العربية .

إنني لن أنسى ذلك المنظر الغريب ! كانت الرياح تهب بشدة من خلال الثقوب في البرج . والعويل الذي طلع من الحصران التي غطت الشبابيك أو الثقوب في السقف . وكان البرد قاسياً . وأمواج البحر تصطدم بأسفل الجدار بشدة، وتحمل صوت النباح البعيد الذي خلق جواً من الكآبة . وكنت مضطرباً وقلقاً . وكنت أفكر في سفينتي التي كانت قد رست بين صخور غير مألوفة وقاع بحر رملي . وكل ضربة من الأمواج كانت بمثابة ضربة على صدري . وبذلت أقصى جهد لأفهم كلمات لغة غريبة مثل العربية . ولم يكن هذا كله إلا عذاباً لي ودفعت لهذه المتعة ثمناً غالياً . وفرح الشيخ الطيب عندما عرف أن ملك فرنسا من عمره هو . ومن ثم حولنا الشيخ إلى صديقه الحميم وزيره (علي

أبو شعيب) الذي رافقنا إلى المدينة وإلى بيت الابن الثاني للشيخ وهو (الشيخ حسن)[٤] . وكان (الشيخ حسن) محافظ جزيرة ومدينة المحرق .

وقد جاءنا (الشيخ حسن) مع كل من أخيه علي وأحد أبناء عمه وعدد من الحراس . وله من العمر ٣٣ سنة، جميل الوجه وذو وقار . واستضافنا بالقهوة والشربات والغليون . ورتب لي ولمرافقيي سكناً[٥] مجهزاً بالسجاجيد والمخدات الخ . وجاء يزورني أكابر المدينة وعقدت المجلس معهم . وأمسى معنا (الشيخ حسن) وشاركنا في وجبة الطعام التي كان قد جهزها لنا . وبرز نوع من العلاقة الحميمة بيننا . وكان البيت الذي سكنه الطاقم واسعاً . وفي المساء أقيمت حفلة رائعة ولم أستطع أن أستأذن حتى الساعة العاشرة . وتلقيت كرم الضيافة وبالغ الاحترام من الشيخ .

ويطول الليل إذا راودت الهموم ذهن الإنسان . وكان تلاطم الأمواج كئيباً ! وفي بعض الأحيان هبت الرياح بشدة في فناء البيت لتخشخش أبوابه ونوافذه بشكل مخيف .

الأربعاء – ١٩ يناير ١٨٤٢م

استيقظت قبل الفجر . وبعد الصلاة قدمت لنا وجبة الإفطار وأنواع مختلفة من المربى . وقام الشيخ حسن بزيارتنا . وأعربت له عن قصدي للقيام بجولة استكشافية للجزيرة . فأرسل لنا بعض الخيل العربي الأصيل مزينة مثل الخيول الفرنكونية[٦] عليها سجاجيد ومسرجة بسرج رائعة ولو بدون ركاب . ورافقنا (مبارك) من مساعدي (الشيخ عبد الله بن أحمد) راكباً بغلا . وكنت شديد التوق لرؤية سفينتي وكنت قلقاً للغاية . واستشعرت الطمأنينة عندما رأيت ساريتها تظهر بالتدريج فوق الرمال وكنت أسرع إليها . مثلما يفرح أي مدني بعد أن يسافر لثلاثة أيام بين الرياح الشديدة وينظر إلى المدخنة في سقف بيته من بعيد سالماً في نفس المكان ساطعاً ومشرقا . وكان هذا شعوري عندما رأيت سارية سفينتي تتأرجح قليلاً وترفع أبراجها الجميلة عالية في الضباب .

وليست جزيرة المحرق إلا كومة من الرمال مع مجموعات من النخيل والقرى المنتشرة هنا وهناك . وبصفة عامة تشبه الأخطبوط الذي ينشر أرجله لكي يمسك الصخر . والجو هنا صحي فقرر الشيخ أن يتخذها مقراً لحكومته . ويسكن أكابر البحرين

مدينة المحرق . ويبلغ عدد السكان حوالي ١٠،٠٠٠ نسمة ويسكن ٤،٠٠٠ منهم المدينة . وتقع القرى على طول الشاطئ محاصرة بمجموعات من النخيل، ومياه الآبار في الأرض الباطنية . والمكائن التي تديرها الحيوانات ترفع الماء إلى الأعلى . وفي الشمال يوجد منظر جميل . فهناك مسجد فوق الصخر[٧] في حديقة يملكها (الشيخ محمد) شقيق (حسن) . ويقوم المبنى على أعمدة تصل إلى الماء . وسقفه يقف على صف أعمدة برواق مقنطرة مما يعطي له وضع هوائي . ووراءه تقع مجموعة من النخيل المروية جيداً وباردة في جوها وقد أعجبت بها وكان كل شيء فيها فاتناً .

وكانت النساء يتجنبننا ويختبئن، ولم نر وجوههن قط إلا بصورة سرية أو مفاجئة . وعلى العموم وجدناهن جميلات . وكانت قطعة في الجنوب الشرقي قد احتلها سماكون . وأينما ذهبنا اجتذبنا أنظار الجميع وكنا موضع نقاش بينهم .

وفي قطعة أرض رملية ثانية رأينا قلعة بجدارين مزدوجين[٨] وميداناً محصناً مهجوراً ! ومن سوء الحظ، فإن الضابط الذي كان في مرافقتي صادف حادثة . وسقط بحصانه على الرمل . والأرض من حولنا تشبه الصحراء العربية . أي سهل رملي وأفق بظل أحمر ونخلة في البعيد . وفوق قمة قبة الرمل جِمال وجِمال . وظهر البدوي مع رداء رأسه مكبراً عملاقاً بسبب تأثير السراب . وظهرت مسافات متناهية دون ظهور معالم معترضة بينها . وكانت السماء زرقاء بالرمال الملتفة حول أرجل الخيول العربية .

ولما رجعنا إلى المدينة تناولنا العشاء من الدجاج والأرز . ثم زارنا (الشيخ حسن) . وذهبنا إلى المدينة لكن السوق ما كانت مزودة بالبضائع بوفرة . وكانت المساجد متعددة وكثيرة . وقد سمح لنا بالوصول إلى المنبر الذي يخطب الملا منه ويقرأ الآيات القرآنية على الملأ . ويرى هؤلاء العرب الأوروبيين نادراً فيبدون الصداقة نحوهم . ووجدت أينما ذهبت مشاعر كريمة بحب الاستطلاع . وما أهانني أحد قط . وجاء الناس ليزوروننا حتى موعد العشاء . وكان كرم ضيافة (الشيخ حسن) لم ينضب أبداً . وامتد كرم ضيافته إلى أفراد الطاقم أيضاً .

ليلة أكثر هدوءاً . إن الشيخ عبد الله حاكم سخي . ولا ينتزع أموال الناس . يفرض الضرائب على صيد السمك والتمور فقط .

الخميس ٢٠ يناير ١٨٤٢م

كان قصدي أن أزور الدمام[٩] . معقل القرصان (رحمة بن جابر) وهي الآن تابعة للشيخ (عبد الله بن أحمد) وسيهات التي كان يحكمها ابنه الأكبر (مبارك) وأزور في سيهات (خالد بن سعود)[١٠] شقيق (عبد الله بن سعود)[١١] الذي أرسله (إبراهيم باشا)[١٢] وهو صغير السن ليتربى هناك، عقب احتلال (الدرعية)[١٣] وأظن بأن الباب العالي (السلطان عبد المجيد)[١٤] أرجعه ثانية إلى السلفيين بمرافقة (خورشيد باشا)[١٥] الذي كان عليه أن يساعده في استعادة الحكم في أقاليم أبيه . واستوطن (خالد) (القطيف) لكن السلفيين لم يعترفوا به . ونظراً لأنه تربى في (القسطنطينية) وتعود على الترف المنسوب إلى تلك المدينة بينما كان السلفيون أشداء في أنماط حياتهم سواء في اللبس أو الأثاث . وما كانوا راضين (بخالد) كقائد لهم . فحصل الانقسام والتمرد، واستولى السلفيون على القطيف، فعاد (خالد) إلى سيهات وقام بمحاصرتها بجنوده دون حماس . وكان جنوده مكونين من العرب والأتراك على السواء . وكانت النزاعات والخلافات تسود الساحل كله .

ولا أستطيع أن أقوم بزيارة القطيف كما كنت أنوي . ومن هناك أردت أن أتوجه إلى (تاروت)[١٦] وأزور تلك الجزيرة . فخابرت (الشيخ عبد الله بن أحمد) عن المشروع . فقال لي بأنه صديق لـ (خالد) وحليفه ومسانده، وبأن ابن (خالد)، محافظ الدمام صديق حميم له، وأنه يعرف كل شيء يعرفه (خالد) فلا فائدة من زيارتي لـ (تاروت) . وليس صحيحاً بأن تاروت فوضت للإنجليز رغم أن ضابطاً إنجليزياً أرسى سفينة صغيرة في البحرين وقام بزيارة الجزيرة وحاول أن يتدخل في تجارتها لكنه لم ينجح ولم يتم التنازل عن أي حق في (تاروت) لصالحهم . تصــور ! يتنازل (خالد) عن (تاروت) لصالح الإنجليز !! . (تاروت) تخص (القطيف) وفي الحقيقة (تاروت) جزء من البر الرئيسي ومتصلة به برصيف رملي عند أدنى المد حيث يمكن الركوب إليها على ظهور الخيل . و(تاروت) شبه مهجورة . وميزتها الخاصة تكمن في وجود عين عذبة داخل القلعة . وفي رأيي لن يمنع كل ذلك الإنجليز من أن يثبتوا فيها . وإذا حصلوا على التنازل وأقاموا فيها فلا تستطيع أية قوة عربية أن تخرجهم من هناك . ونظر إلي (الشيخ عبد الله بن

أحمد) بدهشة عندما ذكرت له تنازل (خالد) عن حقه لصالح الإنجليز، فنفى ذلك وقال بأنه خارج الإمكان أن يحصل ذلك على يد العرب .

أردت أن أستأجر بغلة لهذه الرحلة لكن الشيخ (عبد الله بن أحمد) لم يسمح بذلك وقال بأنه يعيرني بغلته التي ركبها في ١٨ يناير عندما ذهبت لأسلم عليه . وأراني رسالة مختومة من (خالد) نفسه كان قد أرسلها ابنه (مبارك) .

وعقدت اجتماعاً مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) هذا الصباح، وكان يستعد ليتوجه إلى الزبارة[١٧] على البر الرئيسي التي كانت إحدى توابعه . فأجل رحلته إلى الغد . وجاءني صباحاً (علي أبوشعيب) وزيره وصديقه الحميم ليرافقني لأزور الشيخ الذي كان ينتظرني . وتناولت فطوري ثم رافقته . ووجدته مع ابنيه (حسن) و(أحمد) . فخلص منهما وأعربت عن رغبتي في أن يبقى معنا (علي أبو شعيب) كطرف ثالث . ففرح الشيخ جداً بهذا الاقتراح . ثم عقدنا "كلاما" مع الشيخ دام ساعتين[١٨] .

وكان الشيخ معجباً بما شرحت له من جغرافية الخليج وأشرت إلى أهمية ممتلكاته ومخططات الإنجليز . وقد أنهيت الحديث لأني تعبت كثيراً بسبب قلة إلمامي بالكلمات العربية لأنقل له ما أردت أن أنقله . وكان الشيخ يرغب في أن أواصل كلامي . لكني عرضت كافة المعلومات التي كنت حريصاً عليها . فقلت له بأني تعبت . فصافحني الشيخ وقال أني صديقه وطلب مني الوعد أن أراسله فوعدته .

وتوجهت إلى مدينة المنامة راكباً قارباً مفتوحاً . ومجيئنا إلى جزر البحرين أثار كلاماً متحمساً بين الناس . ولم يكن يعرف أحد علم (راية) فرنسا وتساءلوا لماذا هذه السفينة الكبيرة ؟ لماذا جاءت ؟ ولماذا عقدت مفاوضات طويلة مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) ؟ كل واحد يبتسم عندما أقول لهم إنه مجرد لقاء ولا شيء غيره .

إن المنامة مدينة تجارية في جزر البحرين والمحرق عاصمتها الإدارية . ويسكن كبار الرجال في المحرق في حين يملك التجار ورجال الأعمال بيوتاً في المنامة . والمحرق ليست كبيرة والسوق فيها تتعامل في الاحتياجات اليومية . والسوق في المنامة أكبر وتساوي سوق مسقط في حجمها . وتكثر فيها خانات للنزلاء ولقد زرتها لأتعرف عليها . وأكبرها "خان الجادر وهو لبيع الأقمشة" يملكه البانيان . ويكثر عدد البانيان في السوق وهم يبيعون القماش والبضائع التجارية من بومباي . ويوجد تجار عرب يمارسون التجارة مع تجار

الإحساء[١٩] . إن المنامة شريك تجاري لكل من البصرة وبوشهر ومسقط (للمرور والنقل) وبومباي . والمنسوجات الصوفية من الإحساء تعتبر من أغلى أنواعها . خاصة البرنس (غطاء الرأس والظهر ويشبه القميص الطويل) . وتنتج البحرين التمر . وفي جنوب المدينة توجد غابة من النخيل تشبه ستاراً وهي جميلة المنظر .

وتكمن ثروة المدينة في صيدها اللؤلؤ . ومن سوء الحظ لست هنا في موسم صيد اللؤلؤ حيث يكثر عدد السفن والنشاط التجاري . والآن يسود الهدوء . ويسكن المنامة كالمحرق عدد كبير من تجار اللؤلؤ . ويمول هؤلاء التجار صناعة اللؤلؤ برأسمالهم بفوائد عالية جداً ويجعلون الصيادين والغواصين معتمدين عليهم كلياً . كما يؤجرون لهم سفن الغوص وهكذا لا يستطيع الغواصون والصيادون التخلص من الدائنين إلى الأبد . والبانيان أثرياء ويعرفون أساليب المضاربة . ومثلهم بعض الإيرانيين والآخرون من جنسيات عربية مثل عبد العزيز والشيخ والبنعلي الخ .

ولا يسكن الناس المنامة طول السنة بسبب رداءة طقسها . وتوجد هنا بيوت واسعة مثل : بيت (محمد بن خليفة) ابن ولد شقيق (الشيخ عبد الله بن أحمد) بجوار البحر ومنظره جميل بأعمدته . وأمام بابه ١٠ عربات للمدافع البحرية في حالة جيدة رغم أنها قديمة . ٧ منها مصنوعة من الحديد و٣ من النحاس . وأصلها دون شك برتغالي . ورأيت على أحد المدافع البرونزية شعار النبالة البرتغالي . والتشابه بين أشكال المدافع أقنعني بأن أصلها واحد .

كان البرتغاليون متركزين في جزيرة البحرين الرئيسية بالقرب من المنامة غرباً على بعد حوالي فرسخ واحد . وتوجد حتى اليوم آثار قلعتهم[٢٠] .

ويوجد في المقابل صخر[٢١] كان يستخدم كمنار للميناء الصغير الذي اختاروه . وكان الصخر محاطاً بفشوت عمقها حوالي ١٢ أو ١٨ قدماً وتبقى هذه المدافع على الجزيرة رمزاً للقوة التي كانت مسيطرة أيام زمان . ودون شك هناك مجال مفيد للقيام بأبحاث في سيطرة البرتغاليين في الخليج، في البحرين وبوشهر . . الخ . إنهم اختاروا مواقع قوية ورغم أنه لم يبق حتى واحد منها اليوم إلا أن دراسة هذا الموضوع قد تكون مفيدة للمستقبل . والغريب أن روعة هرمز نالت صيتاً رغم أنني لم أقرأ شيئا عن هرمز . (وهذا يشكل موضوعاً ملائماً للبحث في كتابات المؤرخين البرتغاليين) .

توجد قلعة[٢٢] خارج المدينة وهي قلعة كبيرة مربعة بأبراج مهجورة متهدمة في الداخل وفيها حوض ماء عذب أو ماء بئر لا أعرف بالضبط . واليوم تستخدم كاصطبل أو حديقة عامة لتربية أفراس ولتوليد الخيول الممتازة التي يملكها شقيق الشيخ (عبد الله بن أحمد) . ويسكن هذا الشيخ وأبنـــاؤه السبعة جزيرة البحـــرين في بيوتهم الريفية في الرفاع[٢٣] .

وعلى بعد بضع ساعات فقط إلى الجنوب يوجد كل شيء بكثرة كالجبال والهضاب والنخيل والتمر والماء العذب الخ .

أما الخيول العربية فما أروعها !

رجعت إلى المحرق مساءً . وكنت أريد أن أتوجه إلى الدمـــام في نفس المساء أو الليل . وجاءني صاحب البغلة الذي وافق على أن يؤجرها لي . ولكن كان منظره قبيحاً للغاية وكرهته . وكان صعباً في تعامله معي وشعرت بأنه لن يسمح لي بحرية التصرف في ترتيب رحلتي حسب رغبتي . وما كان عندي وقت إلا قليل . وإذا طلبت توسط (الشيخ حسن) أو أبيه في الموضوع سيصبح معقداً للغاية، وكذلك لم تعد زيارتي لـ (تاروت) ضرورية فألغيت المشروع .

بناءً على دعوتي جاء (الشيخ حسن) وصديقه (مبارك) للعشاء .

اضطررنا للتوقف في المحرق لثلاثة أيام بسبب الرياح المضادة التي هبت بشكل متواصل . ولم يتخلف الشيخ في كرم ضيافته أبداً لكنني تذكرت المثل الذي يقول أن الضيف تفوح منه رائحة سمك بعد ثلاثة أيام . وكنت أخشى أن يحصل ذلك بخصوصي أنا . لكنه لم يتحقق بالفعل . وزارنا مزيد من الناس في ذلك المساء . وتعبنا واستأذنا مبكراً .

الجمعة – ٢١ يناير ١٨٤٢م

لقد نفد صبري لكي أعود إلى سفينتي . وتغيرت الرياح في الليل . وعدت صباحاً لأغادر . وكان (الشيخ حسن) قد أخبرني بأنه سوف يودعني على متن (لافاووريت)، ولكنه بعد صلاة الفجر جاءني وهو في لبس ملكي فاخر وقال لي بأنها كانت مناسبة

دينية مهمة وكان عليه أن يذهب للمسجد ظهراً مع المسلمين كقدوة حسنة للشعب . وأضاف قائلاً : "أنت تودعنا ولا أستطيع أن أتابعك على السفينة . ولكن هل تستقبل (مبارك) بلطف إذا أرسلته لك ؟" ثم شكرني بمنتهى الحنان . ثم جاءني شخص مهم آخر وهو (علي أبو شعيب) . وهو أيضاً كان يريد أن يأتي على متن السفينة . وهو راضٍ مني لأني أبديت الثقة فيه لما طلبته أن يكون الجانب الثالث أثناء مقابلتي السرية الثنائية مع (الشيخ عبد الله بن أحمد) .وأنه لما رأى (حسن) ومرافقيه شعر بانزعاج وكان هذا الشعور متبادلاً . وأراد الاثنان أن يتخلصا من بعضهما البعض وقاما بالانصراف كي يعودا بشكل منفرد الواحد دون الآخر . وأقسم (علي أبو شعيب) بصداقتي وجعلني أعده بأن أكتب للشيخ الذي نقل عن طريق (علي أبو شعيب) بأنه يفرح إذا رأى خاتمي على الرسالة .

وبعد الغداء رجعت إلى سفينتي . وكانت المدينة بأكملها مفعمة بابتهاج . وفي الصباح الباكر سمعت صوت المؤذن : "....الله أكبر ..." فتذكرت زيارتي للمسجد الكبير في المنامة قبل الأمس . حيث رأيت المنبر يؤذن منه المؤذن ويدعو الناس للصلاة خمس مرات في اليوم . ولا توجد منارات أو أبراج هنا في المساجد لأن السلفيين يرفضون مثل هذه الإضافات التجميلية . إن المساجد كبيرة ومبنية بالحجر . وفيها مقنطرات وفرشها مبلطة بأصداف صغيرة وجدرانها مبيضة . وما فيها مفروشات غير الحصر . بالنسبة إلى البيوت فإن منظرها الداخلي بائس لأن الجدران خشنة الطلاء . واضطررنا إلى أن نعلن عن زيارتنا رسمياً كي يجلبوا لنا السجاجيد الإيرانية والحرير لاستخدامنا . وبالمناسبة رأيت عدداً من جنود (خالد) في المنامة وليس لديه نقود ليدفع لهم المعاش . فيرسلهم إلى جزيرة البحرين حيث يجدون فيها المراعي لخيولهم وبعض التسهيلات البسيطة الأخرى . ويرجع كل هذا لصداقة (الشيخ عبد الله بن أحمد) وكياسته . ولأن عبء الحياة في البحرين أقل منه في البر الرئيسي .

وجدت في كل مكان مشاعر البهجة والأفراح . وكان الرجال الكبار يركبون خيولهم المزينة . وحتى أفقر الناس أيضاً زينوا ملابسهم البالية بنوع من التجميل . ولبس كل واحد منهم أحسن ما كان يملكه . واحتشد الأطفال على الشاطئ وكان مع كل واحد منهم إما عصا أو عود . وغنوا كفرقة موسيقية أغاني بآلات موسيقية وترية وهوائية . وفي

وسطهم يرفرف علم فوق سعف من النخيل . وشكلوا حلقة ورقصوا رقصات محلية بحركات الجسم وإيماءاته .

ويجب زيارة هذه البلاد لنعرف أنماط احتفالاتهم وأفراحهم . ورغم أني كنت بعيداً عن الشاطئ إلا أنني سمعت أصوات الأطفال وآلاتهم الموسيقية البسيطة التي نقلتها لآذاني الرياح المواتية ووصلني (مبارك) راكباً بغلته وسرعان ما ودعني عندما رفعت أشرعة (لافاووريت) . وكان أسفه الشديد بادياً لمغادرتنا وودعنا بتحياته العديدة المتكررة معبراً عن صداقته وشكره لنا .

وعندما غادرت المحرق هذا الصباح، رأيت منظراً جميلاً في وسط القناة التي تفصل المحرق عن المنامة . وكان الأفق حادا والجو صافياً والشمس ساطعة . وكانت الرؤية شفافة بكافة تفاصيل الساحل كأكواخ السماكين وقواربهم على الرمال وبيوت التجار وأشجار النخيل التي تعطي للبحرين منظر الخصوبة والنضرة، ولا توجد هذه الخصائص في المناطق الوعرة .

وتوجهت شرقاً ومررت بالصخر الكبير الذي يمتد بجانب مياه البحرين، ولم أستطع أن أتأكد من دقة الأعماق المذكورة على الخريطة . فإن كافة المعلومات التي دونها الضباط الإنجليز عن الخليج ليست دقيقة لكنها تكفي لأغراض الملاحة العادية .

القائد البحري – تيوجين بيج

ولد في ولاية (شامبان) في فرنسا في ٣١ مارس ١٨٠٧م . وكان أبوه صاحب فندق . ودرس في كلية الهندسة (بوليتكنيك) واختار الخدمة في القوات البحرية .

وفي نوفمبر ١٨٢٧ كان طالباً عسكرياً على سفينة (لاكوريير) أثناء عملياتها في الشرق . وشارك في عمليات الجزائر برتبة ملازم ثان .

وفي ٣٠ مايو ١٨٣٢م تعرض لتحطم سفينة قرب المكسيك . وانتهز الفرصة لدراسة سواحل المكسيك . وأبحر على الشاطئ الغربي لأفريقيا(١٨٣٤م) على متن سفينة (ترايدنت) في مارس ١٨٣٦م .

وكان نائب رئيس أركان في أسطول (شارلز بودن) أثناء حملته على المكسيك . وفي بطولة نادرة أثناء العمليات في (فيراكرون) تنكر بلباس ملاح عادي وقام بجولات استطلاعية في القلاع وحصل على معلومات قيمة عنها مما أدى إلى نجاح العمليات .

وفي ١٨٤٠م خدم في هيئة الأركان وتميز بحماسه وسرعة فهمه وسداد رأيه أثناء محاصرة (بيونس أيرس) .

وفي مارس ١٨٤١م نال ترقية لرتبة مقدم وعين قائداً لـ (لافاووريت) وبهذا المنصب قاد حملات جليلة لمدة ٣ سنوات في كل من المحيط الهندي والخليج وبحر الصين . ومن منجزاته الرائعة رحلته عبر (نهر يانجتسي) إلى (نانكنج) دون خريطة .

وفي يوليو ١٨٤٤م عين ضابطاً معاوناً للأميرال (بارون ماكاو) وهو وزير بحري للملك (لويس فيليب) . ورافق (بيج) الملك (لويس فيليب) في زيارته للملكة (فيكتوريا) ونال وساماً وعمل قائد سفينة في كل من المحيط الأطلنطي والمحيط الهندي في ١٨٤٥م وترقى لرتبة عميد بحري .

وفي ١٨٥١م ترأس القسم البحري لـ (أوسيانا) وتولى منصب اللواء البحري في (طولون) في ١٨٥٤م .

وفي ١٨٥٩م قاد الفريق البحري (بيج) حملة في بحر الصين . ثم ترقى إلى رتبة الأميرال في أغسطس ١٨٦١م، وعين القائد العام للقوات البحرية .

وتوفي (بيج) في باريس في ٣ فبراير ١٨٦٧م .

وكان (بيج) كثير الاطلاع وذا خبرة عظيمة وكتب مذكراته مع رسومه الشيقة ولايزال كثير منها غير منشور .

سفينة (لافاووريت)

مواصفات :

فرقاطة خفيفة صنعت في (طولون) في نوفمبر ١٨٢٧م .

الطول : ٣٨ متراً .

السائل المسحوب الأمامي : ٤,٨٠ متراً
الوزن : ٧٥٢ طناً .
صاري المركب : ٢٣,٧٥ متراً .
الأسلحة : ٢٤ مدفعاً بحرياً .
الطاقم : ١٦٥ (منهم ١٦ ضابطاً) .

تاريخها :

١٨٢٩م : غادرت (طولون) وأبحرت إلى صقلية لمدة شهرين .

١٨٢٩م – ١٨٣٢م : قامت برحلات عبر العالم إلى كل من رأس الرجاء الصالح، ومدراس في الهند، وسنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلندا .

١٠ يونيو ١٨٤٤م : فصلت عن الخدمة في القوات البحرية .

الهوامش

١ – هذه قلعة أبو ماهر وحسب خريطة برتغالية موجودة في المكتبة الوطنية في باريس ترجع القلعة إلى الاحتلال البرتغالي في القرن السادس عشر . وفي ١٨٢٨م عندما قامت قوات السلطان سعيد بن سلطان من عمان بغزو القلعة باءت بالفشل . لكنه دمر بعض المباني . وقد أعاد الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة القلعة إلى وضعها الأصلي في ١٨٤٠م . وفي ١٨٤٣م حوصر الشيخ عبد الله في نفس القلعة على يد حفيد ابن أخيه محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة . وفي ١٨٦٩م بعث الإنجليز حملة تأديبية ضد الشيخ محمد بن خليفة . ودمر فيها أسطول محمد بن خليفة كما دمرت قلعة أبو ماهر . ويبقى الآن مبنى واحد فقط من بين أربعة مبان وكذلك بعض الأجزاء من سور القلعة حيث كانت سابقاً ٤ معاقل ما بين الأسوار . ودمرت بقية الأجزاء في القرن التاسع عشر . وفي بداية القرن العشرين استخدم المعقل كمحجر للحجر الصحي . وأعادت دائرة التراث أخيراً المعالم إلى ما كانت عليه . وتقع القلعة الآن على القاعدة العسكرية لخفر السواحل .

٢ – الغليون يستخدمه الإيرانيون بكثرة وهو عبارة عن أنبوبة تسمح للدخان أن يمر بها من خلال ماء معطر قبل أن يدخنه المدخن .

٣ – أي نابليون .

٤ – ليس الشيخ حسن بن عبد الله الابن الثاني بل الابن الثامن . وكان للشيخ عبد الله بن أحمد عشرة أبناء . وهم كل من راشد وحمد ومبارك وناصر وأحمد ومحمد وحمد وحسن وعلي وراشد . وكان للشيخ حسن بن عبد الله ثلاثة أبناء . وهم كل من راشد وعبد العزيز وداود .

ملاحظة :-

ليس الشيخ حسن بن عبد الله الابن الثامن بل التاسع . إذ كان للشيخ عبد الله بن أحمد عشرة أبناء وهم كل من : راشد، وأحمد، ومبارك، وعلي، وناصر، وأحمد، ومحمد (١٢٨٦هـ)، وحمد، وحسن، وراشد (شجرة العائلة لعام ١٩٨٢م في مركز الوثائق التاريخية بالبحرين) .

٥ – كان الشيخ حسن بن عبد الله قد بنى هذا البيت ما بين ١٨٣٠ –١٨٤٠م . لكنه معروف باسم "بيت الشيخ عيسى" اسم الحاكم الذي حكم البحرين من ١٨٦٩م إلى ١٩٣٢م . وأنقذ هذا البيت المهجور من الاختفاء في عام ١٩٧٥م عندما وضعت الشيخة هيا آل خليفة مديرة الآثار

والمتحف البحريني خطة لإحيائه وإنشاء ميدان عام في الموقع . وبدأ العمل في هذا الشأن في ١٩٧٦م .

المصادر :

"هاري كلبرت(كلير) ولالاندي (كرستيان)" – "بيت الشيخ عيسى في البحرين" الأبحاث في الحضارات العظيمة، مذكـرة رقم ٨ الطبـع في باريس ١٩٨١م .

٦ – كان الفرنكونيون فرسان السيرك من البندقية بإيطاليا الذين استوطنوا فرنسا في ١٧٢٨م . وكان كل من أنطوان ولورانت وفيكتور وشارلز فرانكوني مدراء سيرك . وفي القرن التاسع عشر، كان لوران فرانكوني معلم الفروسية لعائلة (أورلينز) . وابنه (فيكتور) نظم السيرك صيفاً وشتاءً . ودرب هذا الفارس الرائع الخيول (لنابليون الثالث) لمدة طويلة . وكان (فيكتور) أول من أنشأ أول ميدان سباق الخيل في باريس في ١٨٤٦م .

٧ – المسجد الذي رسمه القائد (بيج) لا يرى على الأرض .

٨ – قلعة عراد – إن العرب هم الذين شيدوها وليس البرتغاليون كما يعتقد البعض . ورممت في فترة من ١٥٥٠م إلى ١٦٠٠م . وفي الثمانينات في القرن العشرين أعيدت القلعة إلى ما كانت عليه عقب أبحاث أثرية . واليوم أصبحت القلعة مركزاً ثقافياً .

المصادر :

(الدكتور أرشيبلد وولز) (قلعة عراد – البحرين) مديرية السياحة والآثار . المطبعة الحكومية – وزارة الإعلام – فبراير ١٩٨٧م .

(الرستماني أحمد حسن) (الخليج وتراثه الأثري) دبي – ١٩٩٤م ص ٢٢٨-٢٣٢ .

٩ – الدمام اليوم ميناء خليجي في العربية السعودية . وكان الدمام اسم قلعة بنيت على صخر في الساحل الشمالي للمدينة كما هي اليوم . ومنشأ القلعة غامض غير أن قاعدتها ترجع إلى أيام (رحمة بن جابر الجلاهمة) (دمرت في ١٩٥٧م كي تحل فرضة محلها لاستخدام سفن صغيرة) وبنى القرصان قلعة في الدمام بعد أن تحالف مع السعودية في حوالي ١٨٠٩م . لكن السعوديين هدموا القلعة في ١٨١٦م لما تركهم (رحمة بن جابر) لشن هجوم على البحرين . وبعد سنتين ساعد (رحمة) قوات (إبراهيم باشا) التركية المصرية في غزوها للقطيف . مما أدى إلى استرداد نفوذه في الدمام . فقام بتشييد القلعة من جديد وتحصيناتها كما بني قرية على رأس هدبة لتكون قاعدة لشن هجمات ضد آل خليفة في البحرين . وفي ١٨٢٦م استولى آل خليفة و (بنو خالد) على الدمام بعد أن قتل (رحمة بن جابر) في معركة بحرية . ولمدة ١٧ سنة فيما بعد، وقد حررها (الأمير فيصل بن تركي) من نجد، وذلك في ١٨٤٤م . وعقب بروز نزاع مع (محمد بن خليفة آل خليفة) أعاد آل سعود السلطة إلى أبناء (عبد الله بن أحمد آل خليفة) وحاول

المغتربون مرة أخرى استعادة البحرين لكن الإنجليز طلبوا من السعوديين أن يطردوهم . وبعد فشل هذه المحاولة قصف الإنجليز المدينة في ١٨٦١م وطردوا المغتصبين منها . وفي ١٨٦٦م تصدت الحامية في الدمام للغزو البحري الإنجليزي الذي كان انتقاماً لحادث وقع في صور في عمان . وسقطت الدمام في أيدي الأتراك نتيجة حملة شنها العثمانيون في ١٨٧١م واحتل العثمانيون جزءاً كبيراً من الجزء الشرقي للجزيرة العربية . وتحت الإدارة العثمانية أهملت القلعة تماماً وخربت وعادت الدمام إلى أهلها كقرية لصيد السمك . . وأصبحت قرية سعودية مرة أخرى .

١٠ — (خالد بن سعود) شقيق (عبدالله بن سعود) الأصغر . كان أمير نجد من ١٨٣٩م إلى ١٨٤١م .

١١ — كان (عبد الله بن سعود) أمير نجد من ١٨١٤م إلى ١٨١٨م وهو الإبن الأكبر للأمير (سعود بن عبد العزيز آل سعود) الذي حكم من ١٨٠٣م إلى ١٨١٤م . وأرسل الرئيس السلفي إلى القاهرة في ١٨١٨م حيث رحب به فيها (محمد علي) بكل احترام وإعزاز . ومن القاهرة أرسل (عبد الله بن سعود) إلى اسطمبول برسالة معه يلتمس العفو من الحاكم العام . لكن السلطان كان عنيداً وطلب الأصوليون معاقبته . وبملابس بالية استعرض ابن سعود في شوارع اسطمبول لثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع ضرب عنقه .

مصدر :

"جلبرت سـينو" (محمد علي ١٧٧٠ – ١٨٤٩م، بيجماليون، باريس ١٩٩٧م، ص١٢٩) .

١٢ — (إبراهيم باشا) ١٧٨٩–١٨٤٨م — الابن الأكبر لـ (محمد علي) الذي شن حملة ناجحة ضد السلفيين في الجزيرة العربية من ١٨١٦م إلى ١٨١٩م .

١٣ — قام (إبراهيم باشا) وقواته بغزو الدرعية في ١٥ سبتمبر ١٨١٨م . وكانت حملة (إبراهيم باشا) في الجزيرة العربية قد بدأت في ٢٣ سبتمبر ١٨١٦م .

١٤ — وليس هو (عبد المجيد) الذي خلف (محمود الثاني) الذي دبر قلب نظام (سليم الثالث) في يناير ١٨٠٨م .

١٥ — (أحمد خورشيد باشا) — محافظ الإسكندرية في ١٨٠١م ثم حاكم عام مصر من فبراير إلى يونيو ١٨٠٥م . واستبدله (محمد علي) فيما بعد ترقيته إلى رتبة "باشاليك" حلب لكن الشعب طرده منها وتم إعدامه لاحقاً .

١٦ — جزيرة (تاروت) تقع اليوم في العربية السعودية عبر مدينة القطيف . وفي أدنى المد يظهر طريق طبيعي ضيق، عرضه من ١٠ إلى ٢٠ متراً و٤ كم طولاً يربط بين الجزيرة والمدينة . وتقع مدينة (تاروت) التاريخية في وسط الجزيرة . وفي القرن السابع عشر شيد البرتغاليون قلعة فيها على

قاعدة آثار لمبنى أقدم . و (تاروت) عبارة عن مجموعة ٥ قرى وأكبرها كل من (تاروت) و (دارين) . وتمت إعادة تعمير القلعة أخيراً .

المصدر :

موســوعة الإسلام : الربــتماني (أحمد حسن) – "الخليج وتراثـه المعمـاري" دب ي ١٩٩٤م ص٢٤٣-٢٤٥ .

١٧ – الزبارة – ميناء على الساحل الغربي لقطر . وفي ١٧٧٦م هاجر (الشيخ محمد بن خليفة) شيخ عتوب آل خليفة وأقاربه من الكويت واستوطنوا الزبارة حيث ازدهرت تجارة اللآلئ . . وهكذا بدأ تاريخ العصر الحديث في المنطقة . وسرعان ما جاهد آل خليفة لتقوية موقفهم في الزبارة وترقية التجارة فيه وبناء أسطول بحري كبير . وقاموا بتحويل قرية الزبارة إلى مدينة كبيرة، كما أقاموا قلعة فيها باسم قلعة (مرير) .

١٨ – كلام تعني "مقابلة" .

١٩ – الإحساء من واحات نجد (الآن في شرق العربية السعودية) وكان هذا الاسم يطلق على المنطقة الشرقية كلها . وعاصمتها هي (الهفوف)وتقع حوالي ٦٠ كم من الخليج إلى الداخل . وتمتد الأرض الزراعية في الإحساء إلى ١٢,٠٠٠ هكتار وفيها أشجار التمر ويبلغ عددها ٣ ملايين شجرة وهي أغنى وأكبر واحة في السعودية . وتجري فيها المياه وفيها وفرة التمر من أنواع ممتازة . وفيها البغال البيضاء التي تصدر إلى كل من مصر والعراق بصفة خاصة . ويصنع في الإحساء قماش لإنتاج (البشوت) الشهيرة . وهذه الصناعة رابحة في المنطقة . وفي ١٩٥٢م نقلت العاصمة الإقليمية إلى الدمام من الإحساء عندما أصبحت الإحساء المنطقة الشرقية .

مصدر :

الموسوعة الإسلامية

٢٠ – هي قلعة البحرين مكونة من حصنين أو برجين مختلفين . ووجدت آثار أحدهما بني في القرن الحادي عشر، تحت رمال الشاطئ . وهذا الجزء جزء إسلامي للقلعة، والجزء الثاني شيد على قطعة أرض صلبة على حدود الشاطئ . وهذه القلعة يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر . وهي رائعة المنظر للغاية كصرح برتغالي. وتربط أسوارها الأبراج الأربعة . وكانت الدكتورة (مونيك كرفان) مسئولة عن الحفريات في قلعة البحرين . ويتم ترميم القلعة لإعادتها إلى ما كانت عليه .

أنظر :

(الدكتورة مونيك كرفان) – "البحرين في القرن السادس عشر : جزيرة منيعة" _ وكتاب آخر باللغة الفرنسية : "قلعة البحرين للعصر البرونزي أو العصر البرتغالي" باريس ١٩٩٨م . والوثيقة – العدد الثاني، د. أباحسين ود. مونيك ص١٧٤-١٩٣ . يناير ١٩٨٣م .

٢١ – هذا الصخر لا يزال كأثر تاريخي لمنار بني عليه . وموقعه غرب قناة مؤدية إلى الميناء الصغير للسفن المارة . وكان البرج أو المنار مهم جداً لإرشاد السفن إلى القناة التي كانت ضيقة جداً . وذكر (بلني) أخطار القناة التي واجهها الملاحون عند الدخول إلى البحرين (تايلوس) آنئذ .

أنظر :

كتاب (مونيك كرفان) .

٢٢ – هي قلعة الديوان أو قلعة المنامة وبنيت في بداية القرن الثامن عشر . كان لها في البداية أربعة أبراج دائرية تربطها أسوار بفتحات تطلق منها النار وهي اليوم مقر للأمن العام .

٢٣ – الرفاع : هي نخيل في جنوب المنامة . وشيدت قلعة الرفاع في القرن السابع عشر على قمة جبل تشرف على سهول رملية . وأخذها آل خليفة سكناً لهم لأول مرة عندما وصلوا إلى البحرين لأول مرة في ١٧٨٣م . وفي ١٨٦٩م اغتيل الحاكم (الشيخ علي بن خليفة آل خليفة) على يد أخيه (محمد بن خليفة آل خليفة) في القلعة . وتم إعادة القلعة إلى وضعها السابق . وفيها متحف .

ملاحظة :

لم يقتل علي بن خليفة على يد أخيه محمد بن خليفة . كما أنه لم يقتل في القلعة . وقبره اليوم في موضع (بوكوارة) بالبحرين (الوثيقة) .

الردة

في بعض مناطق الجزيرة العربية وموقف



تحدثت كتب التاريخ طويلاً عن ما يسمى بـ (الردة) التي وقعت في أواخر أيام الرسول ﷺ وفي زمن أبي بكر الصديق ﷺ، والحديث عن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث جاد ومناقشات جديدة تتبناها عقول مستنيرة تتسلح بالمنطق، وتتكلم بالعقل والإنصاف للوصول إلى حقيقة ما يسمى بـ (الردة) عن الإسلام من قِبَل بعض قبائل الجزيرة العربية .

نحن نقول أن العرب لم ترتد .. !

ونقول لا يمكن للعرب أن ترتد .. ! !

ونقول لا يليق بأمة حملت رسالة القرآن أن تتنازل عنها بين يوم وليلة .. !

ونقول أن تضخيم مسألة (الردة) يراد بها الإساءة إلى العرب الذين هم (مادة الإسلام) وأساس بنيانه .

بقلم : كمال عبد الرحمن النعيمي



ونقول نحتاج إلى كثير من التصحيحات في مسار التأريخ الإسلامي في هذه الفترة الحرجة، وإعادة النظر بدون حرج أو خجل أو ما شابه ذلك في مسألة (الردة) كي لا تبقى هذه المرحلة من تأريخنا مغطاة بغبار الكسل أو مركونة على رفوف النسيان، أو بعيدة عن العقول والأفكار والأقلام بحجة أنها مرحلة (حرجة – مخجلة) في التأريخ الإسلامي ينبغي تناسيها، واعتبارها (نقطة – لطخة) سوداء في تأريخنا الأبيض الناصع .

ونقول نحتاج إلى كتاب عرب جريئين لا يخشون في الله لومة لائم، يدخلون مسألة (الردة) من جديد إلى مشرحة (المنطق التأريخي)، ويناقشون الموضوع من جوانبه كافة، ويقيناً ستظهر حقيقة أو حقائق جديدة لم تطرأ على بال أحد . . حقيقة أن العرب لم ولن يرتدوا عن الإسلام في أية فترة من الزمن، ولكن لا ننكر أن المصائب والفوضى التي ضربت الجزيرة العربية في تلك الفترة هي أصعب وأسوأ من أية ردة حقيقية . . !

في معنى الردة

الردة في اللغة واضحة من الفعل (ارتد – يرتد – فهو مرتد) وتعني كما ورد في المعاجم الرجوع عن الشيء أو إلغاء التعامل به أو معه، وقد تأتي بمعنى استبدال الشيء بآخر، ومهما كثرت التعاريف والمعاني فإنها لا تؤثر على كون (الردة) تنقسم على قسمين، الأول (كلي)، والثاني (جزئي)، وهذا التقسيم مهم، فقد لا تنسحب كلمة (ردة) على سلوك فردي أو (جزئي) ضمن مجتمع يدين بدين لم يرتد عنه، مثلاً كم مسلماً من ملايين المسلمين في عصرنا الحاضر يمتنع علناً عن دفع (الزكاة) ؟، وكم من مسلم لا يصلي وغيره لا يصوم وهكذا .

فهل من يمنع أو يمتنع عن إيتــاء الزكاة أو لا يدفعها في زمننا الحالي نسميه مرتدا ؟

أم أن كل من لا يصلي نقول ارتد . . أولئك قلة فما ذنب المجتمع المسلم الذي يطبق أركان الإسلام كاملة . . ؟

هذا الكلام أو هذا البحث عامة لا يدافع عن العرب وإنما يُحصحص حقاً، وسنرى من خلال التفاصيل ما يثبت وقائع جديدة تظهر الصورة الحقيقية لما اتفق على تسميته (ردة) خطأ .

الأسباب الحقيقية للردة

عندما بدأت الفتنة تحرك رؤوسها في السنة العاشرة للهجرة (في زمن الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ لاحقاً فقد وقعت لأسباب نادراً ما تحدث عنها أو اهتم بها أحد وهي :

١ – أسباب اجتماعية .

٢ – أسباب سياسية .

٣ – أسباب اقتصادية .

كما أن هذه الأسباب كانت تختلف من مكان إلى آخر في الجزيرة العربية ومن قبيلة إلى أخرى، فمثلاً في (البحرين) برزت الأسباب السياسية أوضح من الاجتماعية والاقتصادية، وفي شمالي المدينة المنورة وشمالي شرقها وشرقيها وغربيها أعتمدت الأسباب الاقتصادية أكثر من غيرها، وفي منطقة (اليمامة) كان السبب الاجتماعي واضحاً إلى جانب بعض الأهداف السياسية، وهذا لا ينفي أن الردة قامت في بعض مناطق الجزيرة للأسباب الثلاثة (اجتماعية / سياسية / اقتصادية) بآن واحد .

الأسباب الاجتماعية

لاشك أن مجتمع الجزيـرة كان ينقسم آنذاك على قسمين (مدني وبداوة)[1] وكالآتي :

(أ) مجتمع مدني قائم على الاستقرار، له حدود واضحة للسكن، ويمكن السيطرة عليه بسهولة، تضعف فيه العصبية القبلية إلى حد ما، ينتشر فيها التعليم، تكثر فيه

أماكن الاجتماع كالمساجد والمدارس، ينشغل أبناؤه بأعمال مهنية وحرفية إلى جانب قلة تمارس الرعي والزراعة .

(ب) مجتمع قبلي، يستمد كيانه بشكل أو آخر من شخصية زعيم أو رئيس القبيلة وإن كان يتم عن طريق الانتخاب غالباً، له أماكن سكن متناثرة أغلبها غير ثابت، يعتمد الرعي إلى جانب بعض الزراعة وهو إلى البداوة أقرب، تحكمه سنن وأعراف وتقاليد ثابتة في القبيلة نادراً ما يتجاوزها أحد، والقبيلة تعتمد صلة القربى أولاً، لأنك تعمل ككتلة واحدة لا يحكمها سوى رئيس واحد، وتعتمد العصبية القبلية كعنصر مهم من عناصر وجودها .

على الرغم من أن الإسلام جاء ليوحد ويؤاخي بين الناس، إلا أن حقيقة وضع الجزيرة كان هكذا أثناء الردة، لذلك كانت نظرة بعض رؤسائهم إلى شخصية الرسول ﷺ والمدينة المنورة نظرة ضيقة وضعيفة يشوبها ويشوهها ضباب الجهل والطمع الذين كانا يمثلان السببين الحقيقيين الوحيدين للردة، فكل ما حدث فيها هو بسبب الجهل والتخلف قبل كل شيء، حيث كان بعضهم ينظر إلى الرسول ﷺ على أنه أصبح ملك العرب أو زعيماً للجزيرة العربية، وإن قريشا قد أصبحت سيدة القبائل[٢]، لذلك طالبوا بمكانة اجتماعية لقبائلهم تساوي مكانة قريش بين القبائل، وكيف يحظون بذلك ما لم يطالب رئيس القبيلة أن يكون زعيماً أو ملكاً كالرسول ﷺ، ولكنهم وجدوا أن النبي ﷺ ليس ملكاً أو زعيماً فادعى بعضهم (النبوة) لظنهم أن بإمكان الجزيرة العربية أن تحوي عدداً كبيراً من الأنبياء يعادل رؤساء القبائل فيها . . ! .

وجاء هذا واضحاً في خطبة مسيلمة الكذاب أمام قومه وهو يقول [أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة منكم. والله ما هم بأكثر منكم ولا أنجد، وإن بلادكم لأوسع من بلادهم وأموالكم أكثر . .][٣] ثم كتب إلى النبي ﷺ قائلاً : [من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله : سلام عليك أما بعد فإنني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون][٤] .

يقول أحد الكتاب المعاصرين إن ارتداد العرب وبخاصة بعد وفاة الرسول ﷺ يعود إلى أسباب منها زهو بعض القبائل بنفسها وأمجادها وسلاحها واستقلالها الماضي وعدم صفائها للإسلام في هذه المدة القصيرة صفاءً يُركن إليه ويضيف في مكان آخر ونظرت

بعض القبائل إلى هذا المجد الذي استقام لمحمد ﷺ واستقام في الوقت نفسه لعشيرته وقبيلته، فحسدوا النبي ﷺ على مجده ونقموا على قريش أن تذهب بهذا الفخر النبوي دونهم، فراح بعض زعمائهم يدعي النبوة، ويقوم في قومه مقام محمد ﷺ في المسلمين[٥].

والحقيقة أن أولئك الذين أعماهم الجهل والعصبية القبلية لم يستطيعوا التخلي عن ما في أنفسهم من أمراض اجتماعية وعادات قديمة بالية، ولو أنهم حركوا أدمغتهم قليلاً واحتكموا إلى ضمائرهم لما لجأوا إلى هذه الفوضى وهذه الفتنة التي سالت دماء العرب جراءها كالأنهار في أرض الجزيرة العربية.

فالرسول الكريم ﷺ ما كان ملكاً ولا زعيماً ولا تاجراً كبيراً ولا رئيس قبيلة قبل الإسلام، كان يتيماً فقيراً يرعى الغنم ويعمل بتجارة غيره لا بتجارته، وعندما جاء الإسلام بقي كذلك، لم يتغير شيء في حياته، لا أصبح ملكاً للمسلمين ولا تاجراً عظيماً أو زعيماً للعرب، إنما رسول الله ورحمة للعالمين، فالنبوة ليست منصباً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً، لكنها رحمة للعالمين فوق الماديات والجاه والمنصب.

لكن هذا الكلام لم تستوعبه تلك العقول التي عشعش التخلف والجشع في أمخاخها، وتسلحت بالجهل والعصبية ولذلك قادها جهلها إلى الفتنة.

الأسباب السياسية

يقول مؤرخ عربي معاصر: [إن الذين ادعوا النبوة لم يكونوا ملحدين بل ادعوا أنهم أصحاب رسالة، مما يشير إلى أن الخلاف مع القبائل المرتدة كان يتضمن جانباً سياسياً لا دينياً][٦] ويقول كاتب آخر في هذا المجال: [وكانت الردة تجسيداً للتصادم بين الإسلام والقبلية ولها أكثر من دلالة، من ذلك رفض السلطة المركزية والطموح إلى تكوين كيانات منافسة للأمة][٧]، لذلك كان في اعتقاد بعض رؤساء القبائل أن مركز الخلافة في المدينة المنورة والذي يمثله الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو مركز سياسي بحت، يحكم الجزيرة العربية بسياسة إسلامية مركزية لا تسمح بقيام سياسات انفرادية أو جزئية لبعض القبائل، وبذلك لا يمكن لأية قبيلة أن يقوم بها نظام سياسي خاص، لا يرتبط بالمدينة المنورة ولا علاقة له بالقبائل الأخرى، فيعود الحكم إلى رئيس القبيلة الذي

يفرض قوانين وأعراف منفصلة عن حكم المدينة، وبالتالي تعود القبيلة تدريجياً كما كانت عليه قبل الإسلام [بعض المؤرخين يطلق على فترة ما قبل الإسلام كلمة (الجاهلية) ونراها كلمة صعبة بكل الأحوال] .

ولم يكن الرسول ﷺ ملكاً أو حاكماً وإنما كان نبياً، ولذلك لم يجد رؤساء بعض القبائل وسيلة لعزل قبائلهم سياسياً عن المدينة المنورة سوى ادعائهم (النبوة) لاعتقادهم أن لا وسيلة للاستقلال السياسي سوى ادعائهم ذلك، فلو كان الرسول ﷺ ملكاً لادعوا (الملوكية) ولو كان زعيماً لادعوا (الزعامة) . . وهكذا .

ولم نسمع عن أي فرد من أية قبيلة قد ادعى النبوة، وإنما ادعاها رؤساء القبائل وزعماؤها، فلو كان أحد من قبائل الجزيرة قد ادعاها من غير الرؤساء لأصبح الأمر غير ذلك، والنتيجة لن يتبعه أو يسمعه أحد من الناس، بل سيسخرون منه، ولكن الذي حدث هو أن مراكز (القوة والبطش !) في القبائل هي التي زعمت النبوة، لذلك لم يجرؤ أحد على الاعتراض، فالقبيلة تتبع (الزعيم — الرئيس) و (الناس على دين ملوكهم) .

لذلك كان جانب كبير وخطير من الردة يعتمد على الأسباب السياسية، وهكذا قام بعض المرتدين في (البحرين) مثلاً بالاستعانة بكسرى الفرس لقلب النظام السياسي في المدينة المنورة بعد السيطرة على البحرين وإعادة العرب كما كانوا سابقاً تحت حكم فارس وبإشراف مباشر من المناذرة[٨] .

الأسباب الاقتصادية

هذا سبب حقيقي آخر ومهم من أسباب الردة، والفضل يعود أولاً للجهل الذي خيم على بعض العقول، وثانياً للجشع الذي أعماها فلم تفهم المعنى الإنساني الكبير لـ (الزكاة) و (الصدقات) و (غنائم الخمس) .

فالزكاة ليست (جزية) أو (إتاوة) يفرضها الإسلام على الناس، ولم يفطنوا إلى خطورتها وفوائدها، وقد كانت فضلة تؤخذ من أموالهم أو أموال أغنيائهم، فترد على فقرائهم حتى لا يذهب في الإسلام فقير أو عليل أو عاجز أو ابن سبيل[٩] .

ولم تعرف الإنسانية جميعها منذ أن خلق الله البشر وحتى يومنا هذا اشتراكية مثل اشتراكية الإسلام، ولكي لا يتقاعس أو يتباطأ أو يتكاسل الغني عن مساعدة أخيه الفقير فرضت (الزكاة)، فهي الزائد أو الزوائد من أموال الأغنياء تقدمها إنسانية الإسلام إلى الفقراء المعدمين عن طريق الدولة الإسلامية كفريضة أولاً وركن من أركان الإسلام وضريبة لابد منها وإن أجبر الأغنياء عليها حفاظاً على سلامة المجتمع الإسلامي، لذلك أول ما طالب به الجشعون والجهلاء المرتدون هو إلغاء أو رفع الزكاة عنهم .

أين الأسباب الدينية وأين الردة ؟

إذا كانت بعض قبائل الجزيرة قد ارتدت عن الإسلام فما هو دينها الجديد ؟

هل عادوا لعبادة الأصنام إشراكاً مع الخالق العزيز ؟

هل وأدوا البنات ؟

وما هو كتابهم الجديد والبديل عن القرآن الكريم والذي سار عليه المرتدون جميعاً ؟

الجواب أن حجة المرتدين كانت تقوم على الكذب، وهي حجة عمياء قبل كل شيء، لأن الذين اصطنعوا فتنة الردة المزيفة لم تكن لهم أية أهداف موحدة واضحة يدافعون عنها أو مبادئ ثابتة يقاتلون من أجلها، بل كانوا يتخبطون بأفكارهم السوداء لا يعرفون بالضبط ماذا يريدون، فهناك من طالب منهم بتخفيض الصلوات الخمس إلى ثلاث صلوات[١٠]، ومنهم من قال لو كان محمد نبياً لما مات ومنهم من قال انقضت النبوة بموته[١١]، وآخر قال صلوا ولكن لا تسجدوا في الصلاة، وعلى شاكلة هذه التخريفات والتخرصات الساذجة السمجة المضحكة .

وهناك حقائق مهمة بهذا الصدد لابد من ذكرها :

١ — لو قبل النبي ﷺ — حاشاه — مشاركة مسيلمة (الدجال) بأمر النبوة، لما اقتنع الكذاب ورضي بإطفاء الفتنة، بل كان سيسعر نارها أكثر فأكثر، ولفتنت به الناس كمرض خبيث يصعب استئصاله .

ب – لو وافق النبي الكريم ﷺ بإعطاء كل قبيلة (حكماً ذاتياً) واستقلالاً خاصاً بها منفصلاً عن حكم المدينة المنورة وتكون حرة في سياستها وعقيدتها وحياتها، لما توقفت نيران الفتنة ورضيت كل قبيـلة بحكمها الذاتي المنفصل عن المدينـة انفصالاً كاملاً .

جـ – لو رضي النبي ﷺ بنبوة كل من ادعى النبوة، لصار في الجزيرة العربية آلاف الأنبياء، فكل من هب ودب ولديه عصبة صغيرة أو كبيرة سيدعي النبوة، تلك النبوة التي لم يكونوا ليفهموا معناها الحقيقي أبداً في تلك الفترة .

د – لو وافق الصديق ﷺ على تخفيض الصلوات إلى ثلاث بعد إلغاء أو رفع صلاتي الفجر والعشاء، كما طالب بعضهم بذلك ولما توقفت الفتنة وهمدت نار الردة، لأنهم طالبوا بذلك كحجة يتحججون بها للقيام بطريقة ما بـ (انقلاب) على الإسلام والمسلمين، بانقلابهم على أعقابهم كما يحدثنا القرآن الكريم .

هـ – كذلك لو أطاعهم الخليفة أبو بكر بإلغاء أو رفع (الزكاة) عنهم وإعفائهم من (الصدقات) وضريبة (مغانم الخمس) لما ارتدعوا عن غوغائهم وواصلوا الفتنة .

إذن أين المشكلة . . ؟ !

يصف أحد الكتاب العرب وفاة الرسول ﷺ بقوله : "طوى الجزيرة هول غير منتَظَر، وأصاب الناس عند سماعهم خبر وفاة رسول الله ﷺ ذهول عظيم، صعق له البعض، وفزع الآخرون إلى تكذيبه، إذ كان شيئاً لا تستطيع القلوب البشرية الصبر عليه والاطمئنان له"[١٢] .

والحقيقة أن زلزالاً عظيماً أصاب عقول الناس وقلوبهم عند وفاة نبينا الكريم ﷺ، فاضطربت الأنفس، وظهر بعضها على حقيقته خبيثاً متآمراً وجاداً إلى القيام بـ (الانقلاب) على الإسلام والمسلمين وإزاحة كل ما يتعلق بهما عن أرض الجزيرة العربية، وقبل وفاة الرسول ﷺ روى لنا الله سبحانه وتعالى تفاصيل هذه الحادثة حرفياً كما في الآية الكريمة [**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**][١٣] .

هذه الآية كافية فهي توضح كل شيء، أولاً [الرسول ﷺ بشر كمثله من الأنبياء والرسل الذين أدوا الرسالات وماتوا أو قتلوا]، ثانياً [الأنبياء يموتون ولا تموت رسالاتهم أو نبواتهم وهذا أمر طبيعي للذين يعقلون من الناس]، ثالثاً [أما الذين لا

يعقلون فيسارعون إلى الانقلاب على أعقابهم بسبب الجهل أو الطمع أو ضعف الإيمان وأولئك الذين تأخذهم العزة بالإثم]، هذه الآية الكريمة نزلت في المدينة المنورة وقرأها المسلمون كافة آنذاك وفهموا فحواها، لكنهم رغم ذلك حاولوا الانقلاب على الإسلام وفشلوا لأن الله سبحانه وتعالى متم دينه ولو كره الكافرون .

كانت فترة الردة امتحاناً عظيماً للأنفس والضمائر والشجاعات والمواقف المبدئية الثابتة، أما الأنفس المريضة الجاهلة المتزعزعة فلم يكن لها موقف مبدئي واضح وثابت، فلم نسمع أو نقرأ أن أسيراً من المرتدين وقع بيد المسلمين وقال [لن أتنازل عن ردتي ولو قطعتني السيوف . . !] لم يحدث هذا أبدا، والذي حدث عكس ذلك تماماً، فبمجرد أن ينتصر جيش مسلم على قبيلة مرتدة فسرعان ما تلوذ بحمى الإسلام، وتعود طائعة راضية قبل أن يضغط عليها أحد عدا حالات قليلة شاذة، بل إن بعض زعماء أو رؤساء الردة صاروا لاحقاً من أصلح المسلمين المجاهدين، ومثال على ذلك ما حصل مع طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة في زمن الرسول ﷺ وتفاقم أمره في زمن الصديق ﷺ، ولكنه ما إن انهزم أمام زحف خالد بن الوليد حتى انهارت عصبته، وأثبت لاحقاً أنه من المسلمين المجاهدين، وبخاصة بلاؤه الحسن في معارك (القادسية)، مما حدا ببعض المؤرخين أن يذكروه لاحقاً هكذا (طليحة بن خويلد الأسدي ﷺ . . !)[١٤]، كما أن – سجاح – (المتنبية) الشهيرة والتي تزوجت مسيلمة الكذاب لثلاثة أيام فقط، يقول عنها بعض المؤرخين [وحسن إسلام سجاح بعد ردتها، وانتقلت إلى البصرة وماتت بها، وصلى عليها (سمرة بن جندب) وهو أمير على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة][١٥]، أما زعيم المرتدين في – كندة – (الأشعث بن قيس السكسكي) الذي هزم أمام جيوش المسلمين وأخذ أسيراً إلى الصديق ﷺ، فتاب وعاد إلى الإسلام وتزوج أم فروة أخت الخليفة أبي بكر ﷺ، ثم أقام في المدينة، واشترك في الفتوحات ومنها (القادسية) و (اليرموك) وغيرهما[١٦] .

إذن نعود ونقول . . أين المشكلة . . وما هي (الردة) التي ابتهج لها اليهود والنصارى والمنافقون وطبل لها بعض مؤرخي الغرب ورموز الاستشراق . . ؟ !

الجواب . . كانت فتنة عمياء . . أو نزوة لبعض رؤساء القبائل الذين أرادوا استغلال الفرصة الذهبية – هكذا تصوروها – بوفاة الرسول ﷺ التي أحدثت فراغاً

روحياً واجتماعياً وسياسياً إلى حد ما، ولم تحدث أي فراغ ديني وعقائدي، وبخاصة لأصحاب العقول المستنيرة المؤمنة، ولكنها فتنة لضعاف النفوس والضمائر، فتنة قد تحدث ليس بزمن الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ وإنما في كل زمان ومكان، وهل حركات (القرامطة / الزنج / الحشاشين في قلعة "آلموت" في جبال فارس، ومعارك مثل "الجمل" و "صفين" وغيرهما إلا فتنة، الفتنة قد تستعر لأي سبب وبأية ظروف، ولكن الله تعالى متم دينه ولو كره الكافرون والحاقدون والمرتدون .

زعماء أو رؤساء الردة

١ – مسيلمة بن حبيب الحنفي (شيخ الكذابين)، أسلم واجتمع بالنبي ﷺ وسأله أن يجعل له الأمر بعده، وكان في يد النبي ﷺ عسيب من سعف النخل فقال لمسيلمة : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتكه، فلما رجع إلى اليمامة ارتد وادعى النبوة، وكان سيد بني حنيفة، وهزمته جيوش خالد بن الوليد في معركة اليمامة الشهيرة في (حديقة الموت) واشترك أكثر من مسلم بقتله، وعادت بنو حنيفة للإسلام[١٧] .

٢ – طليحة بن خويلد الأسدي، ادعى النبوة قبل وفاة النبي ﷺ، وزعم كغيره من الدجالين أن جبريل عليه السلام يأتيه، وسجع للناس خرافات وأكاذيب تمجها الأسماع ولا يقبلها عقل، انهزم أمام زحف خالد بن الوليد، وفر إلى الشام عند بني غسان إلى أن توفي أبوبكر ﷺ، ثم حسن إسلامه بعد أن بايع عمر بن الخطاب ﷺ، وشارك في الفتوحات الإسلامية في العراق واستشهد في معركة نهاوند سنة ثمان عشرة[١٨] .

٣ – لقيط بن مالك الأزدي، ادعى النبوة، وتغلب على عُمان، وهزمته جيوش الإسلام[١٩] .

٤ – سجاح بنت الحارث التميمي، ادعت النبوة في السنة العاشرة للهجرة، وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب وآخرون من شيبان ومن قبائل أخرى، كانت تسجع كلاماً لا يستسيغه حتى الجهلاء والمجانين، وتدعي بهبوط الوحي عليها، تزوجت مسيلمة الكذاب لثلاثة أيام فقط، وانهزمت مع من انهزم من جيش أو قبيلة مالك بن نويرة أمام زحف خالد، وبقية حياتها ذكرنا ها في صفحات سابقة[٢٠] .

٥ – الأسود العنسي، ارتد في زمن الرسول ﷺ، وادعى النبوة في اليمن، فقتله فيروز الديلمي – تذكر بعض المصادر أن الرسول ﷺ هو الذي أمر (فيروز) بمقاتلة المرتد العنسي – ورجع كثير من أهل اليمن إلى الإسلام، ولكن وفاة الرسول ﷺ عجلت بإشعال نار الردة من جديد في اليمن[٢١] .

هذه هي أهم رموز الفتنة وأقطابها باعتبار أن هؤلاء ارتدوا وادعوا النبوة، وجمعوا حولهم الأتباع وأوغلوا في حقدهم على الإسلام والمسلمين .

وهناك بعض رؤساء القبائل شاركوا في الردة وجمعوا الأتباع وحاربوا جيوش الإسلام، ولكنهم لم يدعوا النبوة، ومنهم (الحطم بن ضبيعة، جمع بني بكر وحلفاءها في (البحرين) وقاتل المسلمين، و(مالك بن نويرة) وهو سيد بني يربوع، أسلم في حياة النبي ﷺ فجعله على صدقات قومه فجمعها، فلما بلغته وفاة النبي ﷺ ردها من حيث جاءت وامتنع عن دفع الزكاة، وقاتله خالد بن الوليد أثناء زحفه إلى (اليمامة)، وقتل مالك في ظروف غامضة اختلف حولها المؤرخون، و(الأشعث بن قيس السكسكي) في كندة ومناطق أخرى، و(علقمة بن علاثة) في بني عامر وسواهم[٢٢] .

والحقيقة أن كل هؤلاء لم يخططوا أو يفكروا أو يفهموا معنى الردة، وإذا أردنا أن نضرب أمثلة حقيقية على (الردة) فسنجدها جلية واضحة لدى اليهود الذين دأبوا على الخيانة والكفر والردة كلما جاءهم نبي أو رسول، ولنقرأ هذه الآية الكريمة [**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**][٢٣]، ولنقرأ أيضاً ما فعلوا مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام [**فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا به وأشهد بأنا مسلمون**][٢٤]، فاليهود (ارتدوا) عن دين الله الذي بشر به موسى عليه السلام، وكانت ردتهم عجيبة حينما عبدوا (العجل الذهبي) وتركوا عبادة الله الواحد الأحد والنبي موسى مازال على قيد الحياة، وكفروا بدين الله الذي جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولم يكتفوا بالكفر . بل قالوا قتلنا المسيح وصلبناه، ولكن الله جلت قدرته متم دينه ولو كره المرتدون .

أثر وفاة النبي محمد ﷺ على الردة

لاشك أن شخصية النبي ﷺ تعجز عن وصفها الأقلام، ويتوقف عندها الكلام، وتحار فيها الألسن، ولنستمع أولاً إلى رب العزة وهو يحدثنا في القرآن الكريم عن أخلاق النبي ﷺ، فيقول تعالى في أخلاقه [**وإنك لعلى خلق عظيم**][٢٥] وفوق هذا فإن الخالق جل وعلا يصلي عليه [**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**][٢٦] ثم يقول تعالى [**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**][٢٧] . فأية شخصية كريمة عظيمة ومؤثرة في النفوس والضمائر والعقول هي شخصية الرسول ﷺ، كان حضور هذه الشخصية العظيمة يملأ الأرض إيماناً وعدلاً وسلاماً، وحينما غابت هذه الشخصية الكريمة عن الناس ولم تغب رسالتها، فقد زلزلت الناس زلزالاً عظيماً، وامتحنت القلوب والضمائر وبان كل إنسان على حقيقته، فشخصية الرسول ﷺ كانت تملأ الجزيرة نوراً من أقصاها إلى أقصاها، شخصية سلبت لب الغربيين كما امتلكت نفوس المسلمين حباً ورحمة وهدىً، يصف أحد المؤرخين الأجانب شخصية النبي ﷺ قائلاً : "وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد ﷺ من أعظم من عرفهم التأريخ . . والتعصب الديني هو الذي أعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد ﷺ"[٢٨] ويقول (مايكل ل. هارت) في كتابه المشهور جداً (المائة الأوائل) أن محمد ﷺ أفضل بشر خلقه الله على الإطلاق، ويبالغ المسيو كازيمرسكي بحب النبي ﷺ حين يقول أنه يحيي الموتى . . ! مع علمنا أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو الذي كان يحيي الموتى بإذن الله[٢٩] .

والكلام يطول في وصف شخصية الرسول الأعظم، لذلك خلف غيابها وحشة عظيمة في الأنفس وفراغاً كبيراً في قلوب الناس ودهشة صعقت الكثير من العقول سوى أهل الإيمان فهم أقوياء ثابتون على إيمانهم، وأما ضعفاء الإيمان فقد فضحتهم ضلالتهم فكشروا عن أنياب الفتنة من خلال انقلابهم على أعقابهم، ومن الصعب تصور حالة الناس أيام وفاة الرسول ﷺ، فتحدثنا التواريخ بالعجب العجاب عن تلك الفترة، ولا نريد الكثير من الأمثلة ولكن قليلها يكفي، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه شهر سيفه على الناس

وكان يمسك الرجل ويقول له (قل محمد مات . . !) فلو قال أحدهم ذلك لقطع رأسه ابن الخطاب، وزلزل بعض أصحاب النبي ﷺ فبلال الحبشي انهار من البكاء والحزن ولم يستطع أن يؤذن للصلاة، وعم الحزن والبكاء والصياح، ولو لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه دريئة لعاصفة الحزن العظيم لكانت الأمور أصعب من أن يتصورها أحد، لكن الله سبحانه وتعالى أعانه على ضبط النفوس والسيطرة على أعصابهم، فجمع الناس وصاح الصلاة جامعة، وحينما دخل المسلمون المسجد خطب الصديق قائلاً : يا ابن الخطاب ألم تسمع قول الله تعالى [**إنك ميت وإنهم ميتون**] فصمتت الناس وكفكف الفاروق دموعه وهدأت الأنفس .

أما على صعيد الناس خارج المدينة المنورة فكانت الحال أصعب وأكثر تعقيداً، فقد حاولت (مكة) إعلان الردة فردها سهيل بن عمرو وكذلك الطائف وبعض مناطق الجزيرة التي أهمدت فيها نار الفتنة، ومنها قبائل (عبد القيس) في البحرين التي ثبتت على الإسلام .

وهكذا كانت وفاة الرسول ﷺ السبب الأول والرئيسي لإشعال فتنة الردة حتى اشرأبت اليهودية وتطاولت النصرانية وتململ المنافقون وارتدت الأعراب .

القبائل التي أعلنت الردة

يرى بعض المؤرخين العرب والأجانب أن القبائل التي كانت تسكن بأماكن متفرقة أو بعيدة عن المركز السياسي في المدينة المنورة هي التي أعلنت الردة قبل غيرها لبعدها عن المدينة، ومنهم الفريق طه الهاشمي حيث يقول أن عوامل الردة تتلخص فيما يلي :

١ – قرب المنطقة التي تسكنها القبيلة من المدينة أو بعدها .

٢ – علاقة القبيلة بالمدينة المنورة .

٣ – قرب عهد القبيلة بالإسلام أو بعده[٣٠] .

والحقيقة أن القبائل التي كانت قرب المدينة المنورة أو حولها كانت أول من ارتد وانتهز الفرصة لاقتحام المدينة .

ويقول المستشرق الإيطالي (ليون كايتاني) في كتابه (تأريخ الإسلام) أن العرب صنفوا من حيث الردة خمسة أقسام : ١ – القبائل التي أسلمت منذ مدة طويلة وخضعت لسلطان المدينة خضوعاً تاماً وهي التي تسكن بالقرب من المدينة ومكة ومنها (جهينة /مزينة / أشجع / أسلم / هذيل / خزاعة .. وغيرها) .

٢ – القبائل التي تعاقدت مع الرسول ﷺ واشتركت في حروبه الأخيرة وكان فيها مع إسلامها أقلية مختلفة تنتهز الفرص للتخلص من سلطة المدينة ومنها (هوازن / عامر بن صعصعة / طيئ / سليم / خشعم) .

٣ – القبائل الساكنة على حدود الدولة الإسلامية وقد خضعت سياسياً لسلطان المدينة ودفعت الصدقات للرسول ﷺ وفيها أكثرية تتحين الفرص للرجوع إلى حالتها القديمة ومن أخطر هذه القبائل (بنو أسد / وغطفان / وتميم) الذين يسكنون مناطق نجد الغنية .

٤ – القبائل التي لم تخضع لسلطان المدينة بل اكتفت بإرسال الوفود إلى الرسول ﷺ وتظاهرت بالخضوع لسلطانه وفيها أقلية مسلمة ضئيلة كانت تستند إلى قوة المسلمين في المدينة المنورة للاحتفاظ بمنزلتها، ومن أخطر هذه القبائل (بنو حنيفة / وأزد عمان / وأكثر قبائل حضر موت اليمن) .

٥ – القبائل التي لم تؤمن بالإسلام وكانت نصرانية أو مشركة وهي القبائل الساكنة في الشمال كبني كلب وبني تغلب وبني غسان وقضاعة وتنوخ وبني بكر وبعض قبائل حضرموت واليمن [٣١] .

ويقول كاتب آخر، يمكن تفسير العوامل التي دعت إلى ارتداد العرب إلى :

١ – بعضها كان قريب العهد بالإسلام ولم تصف نفسه لهذا الدين الجديد .

٢ – بعضها كان لا يزال يحن إلى عهده الجاهلي من الاستقلال الفردي .

٣ – وآخرون كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى فقالوا نقيم الصلاة ولا ندفع الزكاة لأنها جزية والجزية شيء لا ترضاه قلوب العرب[٣٢] .

ومهما يكن من أمر فإن فتنة الردة قامت، وسببت فوضى عظيمة سجلت نتائجها بالدم من الطرفين . وأهم القبائل التي ارتدت :

١ – بنو فزارة وغطفان، وكانوا يسكنون إلى شرقي المدينة المنورة على طريق نجد .

٢ – بنو أسد وكانت منازلهم في منتصف الطريق بين الحجاز ونجد إلى جنوبي جبل شمر .

٣ – بنو تميم وهم بطون عدة وعلى رأسهم مالك بن نويرة .

٤ – بنو حنيفة وهم سكان اليمامة وقد ادعى فيهم الكذاب مسيلمة النبوة .

٥ – بنو بكر في البحرين .

٦ – بنو أزد في عمان[٣٣] .

إضافة إلى بعض القبائل الأخرى في مناطق متفرقة من الجزيرة، وبعض القبائل التي وقفت على (الحياد السلبي)، بانتظار النتائج ولتقف مع المنتصر أياً كان .

موقف البحرين من الردة

تخبرنا كتب التأريخ أن البحرين لم تقع فيها ردة، فلا ادعى أحد فيهم النبوة، ولا طالبوا بتخفيض الصلوات أو إسقاط الزكاة، ولكن ما حدث هو أسوأ من الردة، حينما استعانت قبائل بني بكر بالأجنبي للقضاء على المسلمين في البحرين ثم إسقاط أو إزالة الحكم السياسي العربي المتمثل بمركز الدولة في المدينة المنورة، وإعادة الجزيرة العربية تحت سيطرة الإمبراطورية الفارسية، وليكون المنذر بن النعمان بن المنذر ملكاً على العرب من قِبَل الفرس كما كان والده قبل الإسلام، وهذا عجيب فالبحرين اشتهرت بنضالها التحرري من سيطرة المناذرة قبل الإسلام ورفضها للهيمنة الفارسية على الجزيرة العربية[٣٤] .

وسبب ذلك كله عداء قديم بين قبائل (بني بكر) وقبائل (عبد القيس)[٣٥] ولأن الأخيرة ثبتت على الإسلام، فقد اشتد عداء (بكر) لها وإلى نصيرتها ونصيرة الإسلام والمسلمين المدينة المنورة، وهكذا امتد العداء ليشمل إزاحة الإسلام عن المدينة وجزيرة العرب كافة، لذلك قلنا إن ما حدث كان أسوأ من الردة، لأن القبائل الأخرى التي

ارتدت في أنحاء الجزيرة لم تطرأ على بالها مثل هذه الفكرة وإنما كانت غاياتها محلية محدودة لا علاقة لها بالاستعانة بأجنبي .

طبيعة أراضي البحرين وموقعها من الجزيرة العربية

يصف أحد الكتاب العرب[٣٦] طبيعة أراضي البحرين بأنها دولة أرخبيلية (مجموعة جزر) والتي تكون وثيقة الارتباط فيما بينها بحيث تشكل هذه الجزر والمياه والتضاريس الطبيعية الأخرى كياناً (سياسياً) و (اقتصادياً) و (جغرافياً) و (تأريخياً) قائماً بذاته .

ويحتل إقليم البحرين الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، ويمتد من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً، ويتاخم أرض اليمامة التي كانت تشكل مع البحرين إقليم العروض، وتتصل المنطقة ببحار هامة فهي تقع على الخليج العربي وما يتصل به من امتدادات بحرية كالمحيط الهندي، وهي المنفذ البحري للجزيرة العربية من جهة الشرق، وحلقة الاتصال البري بين مناطق الجزيرة والعراق[٣٧] .

من هنا نرى أن طبيعة أراضي البحرين وموقعها يختلفان اختلافاً كبيراً عن تلك الأراضي التي دارت عليها فتنة الردة، وبخاصة تلك القبائل التي سكنت وسط (منتصف – مركز) الجزيرة، والتي غالباً ما تكون أراضيها صحارى أو وهاداً أو سلاسل (تلال – جبلية) ارتفاعها من (٥٠٠ – ١٨٠٠م)[٣٨] أما في البحرين فيبدو أن بعض المعارك كانت بحرية أي القتال من جزيرة إلى أخرى إضافة إلى بعض المناطق الصحراوية في المنطقة .

أهم القبائل التي سكنت البحرين

تواردت القبائل العربية إلى البحرين منذ أزمنة قديمة، فقد كانت القبائل التي سكنت البحرين يربطها تقارب من الناحية الأدبية لارتباط أغلب سكانها بقبيلة ربيعة الذين هاجروا إليها في أزمنة متفاوتة، فهاجرت تنوخ إلى البحرين، ثم لحقتها عبد

القيس فدفعتها عنها، وانتشرت الأخيرة في أجزاء اليمامة، وعندما جاء الإسلام كانت عبد القيس تنتشر في معظم أرجاء البحرين وبخاصة في المناطق الساحلية، وسكنت معها قبيلة بكر بن وائل التي امتدت مساكنها إلى اليمامة أيضاً، كما شاركتها في العيش بعض عشائر تميم وقبائل من الأزد[٣٩] .

البحرين والإسلام

بعد صلح الحديبية راسل النبي ﷺ عدداً من الملوك والأمراء ومنهم المنذر بن ساوى ملك البحرين فدخل الإسلام وانتشر على يديه في البحرين، فعين النبي ﷺ العلاء الحضرمي والياً عليها[٤٠]، وحدث أن مرض النبي ﷺ في أواخر أيامه وكذلك مرض المنذر وتوفيا في وقت واحد تقريباً، وعاد العلاء إلى المدينة المنورة، فانقسمت البحرين على رجال عاهدوا الله ورسوله على الثبات على الإيمان وزعيمهم الجارود العبدي، وقبيلة أخرى انقلبت على أعقابها مرتدة عن جادة الحق، وكان رجال الإيمان في البحرين هم قبائل (عبد القيس)، أما سبب انقلاب أعدائهم التقليديين (بكر بن وائل) فهو عداء شخصي قديم بين القبيلتين ولا علاقة له بردة تحاول تغيير دين أو معتقد[٤١] .

يقول أحد المؤرخين أن المسافة بين البحرين والمدينة المنورة كانت تقطع بعشرين يوماً[٤٢] ويقول آخر أن من المستحيل أن يصل أو يتدخل الجيش الإسلامي القادم من المدينة إلى البحرين قبل تحرير مناطق وسط الجزيرة (أي قبل الاصطدام بجيش طليحة الأسدي ومالك بن نويرة ومسيلمة الكذاب الذين يسيطرون على (مركز — وسط) الجزيرة وكذلك تطهير مناطق اليمن وعمان وغيرها، لتكون البحرين بعد ذلك منطقة قتال منعزلة يسهل السيطرة عليها بدون تدخلات جانبية للمرتدين أو أية إمدادات قد تأتيها من أية جهة .

من هنا ينبغي أن نضع دائماً في بالنا هاتين النقطتين المهمتين الخطيرتين أي (بعد المسافة + انقطاع الطرق عن البحرين) وهذا يمكننا من تصور صعوبة القتال والمعارك التي دارت بين المرتدين والمسلمين في البحرين قبل وصول الجيش الإسلامي من المدينة، ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل تعقدت وساءت أحوال المسلمين (عبد القيس) بعد أن

٣ – أغلقت القبائل المرتدة الطريق بين المدينة والبحرين، وذلك لأن جيوشها كانت تحتل المسافة التي تربط البحرين بالمدينة المنورة .

٤ – كان كل من حول البحرين قد ارتد، ولا يمكن لجيش مسلم أن يصلها قبل أن يطهر كل ما في طريق البحرين وحولها من المرتدين، حتى لا يمكن قطع طرق الإمداد على جيش المدينة أو محاصرته قبل أن يصل إلى البحرين، هذا إذا أضفنا للموقف صعوبة أخرى بوصول جيش الفرس بقيادة المنذر بن النعمان بن المنذر إلى المنطقة .

هكذا تتضح الصورة جلياً، فكان على مسلمي البحرين أن يصمدوا في قتال أصحاب الردة، حتى يتقوى مركز الحكم في المدينة بعودة جيش أسامة من غزو الروم والذي غاب فترة (من خمسين يوماً إلى شهرين) وبعد عودته وتعداده عشرة آلاف فارس، قام الصديق بتسليم (١١) راية إلى (١١) قائداً وتوزيع جيش أسامة عليهم إضافة إلى قوة المسلمين التي تمكن الصديق من جمعها، وابتدأت معارك تحرير الجزيرة العربية من المرتدين .

معارك البحرين

تفاقمت صعوبة الموقف على (قبائل عبد القيس) بوصول جيش كسرى بقيادة المنذر بن النعمان، واشترك الحليفان – بكر وجيش فارس – بشن هجمات متواصلة على عبد القيس، وكان (الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة) في بكر بن وائل قد خرج فاجتمع إليه كثير من المرتدين وكثير ممن لم يزل مشركاً حتى نزل القطيف وهجر واستقوى بمن بهما، وبعث بعثاً إلى (دارين) وإلى (جواثا) فحصر المسلمين واشتد الحصر على من بهما[٤٦]، فإذا أضفنا إلى هذا الحصر المدد الذي أرسله كسرى لاحتلال البحرين والجزيرة العربية، فبإمكاننا أن نرى أي موقف شائك وأي حصار وقعت به (عبد القيس)، حينما اضطرت إلى القتال التراجعي واعتصمت بحصن يدعى (جواثا)[٤٧] . وتحت هذا الضغط الشديد اضطرت (عبد القيس)، إلى الاستنجاد بأبي بكر الصديق ﷺ، وقام رجل منهم يدعى عبد الله بن حدف[٤٨] بكتابة هـــذه الأبيات وإرسالها إلى الصديق ﷺ :

ألا أبلغ أبا بكر رسولا ... وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام ... قعود في جواثا محصرينا
كأن دماءهم في كل فج ... شعاع الشمس يغشى الحاضرينا
توكلنا على الرحمن أنا ... وجدنا الصبر للمتوكلينا

فلما نظر أبو بكر ﷺ إلى هذه الأبيات اغتم غما شديداً لما ذكر فيها من حصار عبد القيس وقد اجتمعت عليهم الفرس وبنو بكر، وقرر رفع الحصار عنهم وإنجادهم بجيوش المسلمين .

معركة (جواثا)

أمر الخليفة الصديق القائد العلاء الحضرمي بالمسير إلى البحرين، بعد أن عقد له علماً وضم إليه ألفي رجل من المهاجرين والأنصار[٤٩]، وفي الطريق استثار العلاء حمية بعض القبائل المسلمة لمساعدته في تحرير البحرين، لكنه لم يتمكن سوى من الحصول على أعداد قليلة من المقاتلين المتطوعين من بعض القبائل التي مر بها كتميم وغيرها، ربما بسبب أن نار الردة لم تهمد تماماً في المنطقة، وأن تحمس الناس فيها لقتال المرتدين لم يعد ذلك التحمس الكبير، أو لأسباب أخرى، المهم أن العلاء مضى باتجاه البحرين معتمداً في القتال بشكل رئيسي على المهاجرين والأنصار، وحينما وصل إلى مناطق القتال لم يستطع العلاء أن يقتحم مباشرة معاقل الردة في (جواثا) فقد حفروا خندقاً وصاروا لفترة يقاتلون ويعودون إلى الخندق[٥٠] .

لكن حضور جيش العلاء بث العزم في نفوس مقاتلي (عبد القيس) ورفع معنوياتهم وحرضهم على مواصلة الجهاد، وفي ذات ليلة علا الضجيج والصياح في معسكر الأعداء، وجاء الخبر إلى العلاء بأن القوم سكارى، فاتفق مع المحاصرين إذا سمعتم جلبة المعركة في الليل، فاخرجوا من الحصن وقاتلوهم من جهتكم واعلموا أنني دخلت معسكرهم[٥١] .

وصار العلاء يقوي من عزيمة جيشه وينهاهم عن الجزع والفشل، ثم أرسل رجلاً من أصحابه ليتجسس أخبار القوم، وعاد الرجل آخر الليل وهو يقول أبشر أيها الأمير فإن

القوم سكارى وقد أخذهم النوم، فتقدم العلاء بجيشه بهدوء وحذر، فلما شاهدهم بهذه الحال انقض عليهم، ولم يشعر الفرس وبنو بكر إلا وخيول المسلمين قد أكبت عليهم وحوافرها تطأهم، فاستيقظوا فزعين، ولكن سيوف المسلمين لم تمهلهم ليسترجعوا وعيهم، وبالوقت نفسه خرجت (عبد القيس) من الحصن وانقضت على الأعداء، فوقع المنقلبون والمتآمرون تحت سيوف المسلمين من كل جانب، ورغم ذلك فقد وقع قتال كبير بين المسلمين وأعدائهم، إلا أن الأعداء سرعان ما هزموا بنصر من الله، وهم بين ذاهل وجريح وهارب سوى القتلى[٥٢] .

معركة جزيرة (دارين)

تحول القتال بعد ذلك بشكل أو آخر إلى مطاردة من مدينة إلى أخرى ومن جزيرة إلى جزيرة، ولكن الطرفين مازالت لديهما القابلية والقدرة على القتال، واجتمعت (عبد القيس) من جميع نواحي البحرين، فصار عددهم أكثر من ستة آلاف[٥٣] بقيادة العلاء، فخطب بهم قائلا : يامعشر عبد القيس اعلموا أنكم في جهاد من جاهد بين يدي رسول الله ﷺ ليس بين هؤلاء وأولئك فرق[٥٤] .

وكانت جزيرة (دارين) ليس لها إلا طريق واحد، وكان بينهم وبينها خليج تعبر فيه السفن والزوارق ولكن الأعداء أحرقوا الزوارق، فأصبح صعباً على المسلمين عبور هذا الخليج بدون سفن وزوارق، واعتقد من في (دارين) أنهم نجوا من سيوف المسلمين، وكان العلاء مستجاب الدعوة، فدعا ودعا معه المسلمون، وكان من دعائهم : يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيـــوم لا إله إلا أنت . . فاقتحم الخليج مع جماعته على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك وفيهم الراجل، وكان معهم أبو هريرة ﷺ فقال : "مشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر"[٥٥]، وقال إبراهيم بن أبي حبيبة : "حبس لهم البحر حتى خاضوا إليهم وجاوزه العلاء وأصحابه مشياً على أرجلهم وكانت تجري فيه السفن قبل، وكان بين دارين والساحل يوم وليلة، فلم يحس أهلها إلا والمسلمون يكبرون فوق رؤوسهم" والتقى الطرفان

وأكثر فيهم المسلمون القتل وطهروا دارين منهم، ثم رجع العلاء مع جيشه من دارين كما عبروا إلى الجزيرة وبالطريقة نفسها أي مشياً على الماء .

معركة الردم

كانت معركة الردم هي المعركة الحاسمة في البحرين، فقد تجمعت فيها فلول المرتدين وأعوانهم الفرس لتشكيل قوة بوجه جيش العلاء، على اعتبار أن الردم هي المعقل الأخير لهم، فاشتبك معهم المسلمون في معركة كبيرة أيضاً وحاسمة، فانكسرت جموع المرتدين، وانهزمت بنو بكر فلحقوا بالبراري والفلوات هائمين فيها من سطوة سيوف المسلمين(٥٦)، وهرب المنذر بن النعمان إلى (جفنة) واستجار بأهلها فأجاروه(٥٧)، وانهزم الفرس فصار بعضهم إلى مواضع مثل الزرازة والقطيف والخط وهي من قرى البحرين(٥٨) وبهذا أطفئت نار الفتنة في البحرين، وندم كسرى ملك الفرس أشد الندم على إرسال هذا الجيش بقيادة المنذر بن النعمان وقال : "عرفت أن الركون إلى هذا الصبي – يقصد المنذر – سيكون وبالاً علينا" .

ثم كتب العلاء إلى أبي بكر الصديق ﷺ يخبره بما فتح الله عليه من نصر المسلمين وتطهير البحرين من المرتدين .

نقطة مهمة جداً وخطيرة

هذه النقطة ليست مختصة بالبحرين وإنما بجزيرة العرب كافة، حيث يرى بعض المؤرخين العرب والأجانب أن الفتوحات الإسلامية التي جاءت بعد الردة كانت لجعل أبناء الجزيرة يقاتلون الأجنبي بدلاً من أن يتقاتلوا بينهم فيقتل بعضهم البعض وبمعنى آخر لو لم تكن الردة لما كانت هناك فتوحات إسلامية . . ! ! .

والمؤسف أن قلة من مؤرخينا مشت وراء هذه الفرية التي ابتدعها بعض مؤرخي الغرب، والمؤسف أيضاً أن من يركن إلى هذا الكلام الباطل مؤرخون فيهم من اشتهر بحبه للعرب والإسلام[٥٩] .

والحقيقة أن من السهل تفنيد هذه الادعاءات والأباطيل وكالآتي اختصاراً :

١ – كرم الله تعالى الجزيرة العربية بمحمد ﷺ، وكرم النبي بالقرآن الكريم، وكرم العالمين بالإسلام خاتم الأديان والذي أصبح الدين الأوحد عند الله وهذا الكلام واضح في الآية الكريمة [**إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم**][٦٠] وكذلك الآية الكريمة الآتية [**فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا**][٦١] وأخيراً الآية الحاسمة القاطعة لكل شك [**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**][٦٢] .

٢ – مادامت رسالة الإسلام قد كلف النبي ﷺ بإيصالها إلى شعوب الأرض أجمعين، فكيف سيوصلها إذا لم يكن عن طريق الفتوحات الإسلامية التي هي تبليغ للناس بعبادة الواحد الأحد وترك ما يعبدون سواه، ولنقرأ هذه الآيات الكريمات التي تأمر الرسول ﷺ بتبليغ رسالة ربه - الإسلام – إلى العالمين [**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**][٦٣]، وكذلك يقول العزيز الكريم [**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**][٦٤] وهذا واضح أن الإسلام ينبغي أن يظهر على كل دين في الأرض، وهكذا لابد من التبليغ عن طريق إرسال الرسل والوفود والبعثات والفتوحات الإسلامية التي لابد منها .

٣ – يعتقد بعض المؤرخين أن الفتوحات جاءت لأسباب اقتصادية بحتة، وهذا كلام غير منطقي وإلا تحولت هذه الفتوحات إلى عمليات قتل وسلب ونهب واغتصاب أراض، فالسبب كما هو حقيقي ومعروف تبليغ الرسالة والحفاظ عليها قائمة بين الناس، أي تبليغ الشعوب دين الإسلام ثم حكمها من قبل المسلمين بالعدل ونشر التعاليم الإسلامية فيها وتحقيق أمنها واقتصادها بما يجعلها كياناً كاملاً لدولة إسلامية موحدة تحت راية القرآن .

٤ – بدأت الفتوحات في زمن الرسول ﷺ وسميت الفتوحات النبوية، وتبعتها بعد وفاة النبي ﷺ الفتوحات الإسلامية، ولإثبات أن جيوش المسلمين انطلقت من الجزيرة العربية نحو مشارق الأرض ومغاربها لتبليغ الرسالة وحسب، نذكر الأدلة التي تثبت أن الرسول ﷺ بدأ بالتبليغ منذ أن أعلنت الدعوة في مكة المكرمة، ومن هناك انطلقت الرسالة، لتصل إلى الناس شيئاً فشيئاً، حسبما تسمح به ظروف المسلمين بالتبليغ، واستمر التبليغ بعد الهجرة والاستقرار في المدينة، ثم ظهر جلياً واضحاً بعد صلح الحديبية، إذ تم بعث البعوث وإرسال الرسل إلى شتى بقاع الأرض ونذكر من ذلك :

١ – بعث النبي ﷺ سبعة وأربعين مبعوثـاً إلى مناطق الجزيرة والشام[٦٥] ومن ذلك :-

ا – بعث النبي ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب أسفل ثنية المرة .

ب – بعث حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية العيص .

ج – بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخرار .

د – بعث عبد الله بن جحش إلى نخلة .

هـ – بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن .

و – بعث جيش الأمراء الثلاثة : عليهم زيد بن حارثة فإن قتل فعليهم جعفر بن أبي طالب فإن قتل فعليهم عبد الله بن رواحة، فقتلوا ﷺ في معركة مؤته في أول الشام في معركة مع عساكر النصارى والروم ومتنصري العرب وأخذ الراية خالد بن الوليد وانحاز بالمسلمين .

ز – بعث كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام .

ح – وبعث أسامة بن زيد إلى الشام وهو آخر بعوثه ومات ﷺ قبل أن ينفذه فأنفذه أبو بكر الصديق ﷺ .

٢ – أرسل النبي ﷺ عشرة رسل قبل الفتح وبعد الحديبية إلى الملوك ومنهم[٦٦] :

ا = أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم واسمه هرقل .

ب = أرسل عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس .

جـ = أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة .

د = أرسل حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ومصر .

وأرسل بقية الرسل إلى ملوك عرب في (عمان) و(اليمامة) و (البحرين) و (البلقاء) في دمشق و(اليمن) وغيرها .

لا نضيف حرفاً واحداً فوق كلامنا هذا لفضح أكذوبة يقول بها بعض المؤرخين جنفاً وزوراً وزيفاً – لعدم الحاجة إلى ذلك – تلك الفرية التي تقول [لولم تكن الردة لما كانت هناك فتوحات إسلامية . .!!]، ولا نحتاج للالتفات إلى أولئك الذين يطبلون ويزمرون لفكرة خائبة تقول [الإسلام دين العرب فقط] ومنهم كارل بروكلمان في كتابه (الشعوب الإسلامية) . . الشعوب الإسلامية أم الشعب الإسلامي الواحد – يا بروكلمان – انتهى النقاش في هذه النقطة .

نقاط مضيئة في حروب الردة

مع الأسف ما إن تسمع الناس أو تقرأ عن الردة لا تتذكر منها سوى (مسيلمة الكذاب) ! ، أما بقية التفاصيل فلا تعرف الناس عنها إلا القليل .

لقد أطلق أكثر من مؤرخ أجنبي وعربي على أبي بكر الصديق ﷺ لقب (نبي المجاهدين) وإذا خضنا في حيثيات وتفاصيل حصوله على هذا اللقب، فلا تكفينا صفحات وصفحات، ولكن الصديق (رض) أثبت بجدارة عظيمة أنه الرجل الثاني في كل شيء – ربما على الإطلاق – بعد الرسول ﷺ، لقد استلم الخلافة بثبات وإيمان كبيرين، وامتص زخم المحنة الكبرى وعالجها بعقل كبير وصبر نادر، حمل السلاح وقاتل المرتدين وطاردهم من مكان إلى آخر، كان رجلاً مبدئياً عزوماً لم تزحزحه نيران الفتنة الجبارة التي كادت تحرق الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، ويكفي أنه نفذ رغبة الرسول ﷺ فأنفذ جيش أسامة بن زيد لمحاربة الروم في الشام، في وقت حرج كانت المدينة المنورة فيه بحاجة إلى عشرة رجال لا إلى عشرة آلاف مقاتل هم جيش زيد

الذي غادر المدينة بأوج اضطرام الفتنة، كما أن مواقف الصديق في الحفاظ على أركان الإسلام ودين الله صارت مضرباً للأمثال، فحينما عرض عليه بعض الصحابة أن يتساهل مع المرتدين لكسب الوقت لحين عودة جيش أسامة، رفض رفضاً قاطعاً تنفيذ أي مطلب للمرتدين وقال عبارته الشهيرة حينما جاءت قبائل تعد في حدود اثنتي عشرة قبيلة كبيرة في شمال المدينة وشمال غربها وشرقها ومن بينهم أسد وغطفان وعبس وذبيان ترجو إعفاءها من الزكاة، قال الصديق ﷺ "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه"[٦٧]، ومواقفه المشرفة في فترة الردة كثيرة لا تعد ولا تحصى .

والرجل الثاني الذي برز في مجاهدة المرتدين سيف الله المسلول خالد بن الوليد، ويمكن وصف شخصية خالد بثلاثية مضيئة (بطولة – صبر – تعقل)، وبالغ كثير من المؤرخين حباً بخالد حينما قالوا : "لولا خالد بن الوليد لما انتهت الردة"، صحيح أن المسلمين قاتلوا كرجل واحد ويد واحدة وسيف واحد، لكن خالد كان السيف المسلول على رقاب المارقين المرتدين، فله الفضل في إعادة أغلب وأقوى قبائل الجزيرة إلى حظيرة الإسلام، وتكفي مواقفه في تشتيت جيش طليحة الأسدي ومالك بن نويرة، وتمزيق جيش مسيلمة الكذاب الذي تخبرنا بعض كتب التأريخ أنه كان أربعين ألفاً، وإن كنا نرى في ذلك مبالغة كبيرة، والحقيقة أنه لم يتجاوز العشرين ألفا .

كما لا ننسى مجاهدين آخرين أسهموا بشكل فاعل في إطفاء نار الفتنة، ومنهم (فيروز الديلمي) الذي قتل المرتد الذي ادعى النبوة في اليمن (الأسود العنسي) قبل وفاة النبي ﷺ، ثم جعله الصديق ﷺ والياً على صنعاء وصار يقاتل المرتدين حتى وصلته جيوش المسلمين، وكذلك القائد عكرمة بن أبي جهل محرر (عمان) و (اليمن)، والعلاء الحضرمي الذي حرر (البحرين)، وعدد كبير من قادة المسلمين منهم (المهاجر بن أمية وزياد بن لبيد وشرحبيل بن حسنة وأسامة بن زيد والقعقاع بن عمرو وغيرهم) .

ومن النقاط المضيئة في هذه المرحلة الحرجة، الثبات على الإيمان الذي اشترك به (سهيل بن عمرو) حينما خطب في مكة خطبته الشهيرة، وعثمان بن أبي العاص حينما خطب في الطائف، والجارود بن المعلى العبدي الذي خطب في (عبد القيس) البحرين وقال في خطبته : "تعلمون أن لله أنبياء من قبل محمد ﷺ ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا

ومحمد ﷺ مات وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فثبتت (عبد القيس) على الإسلام(٦٨) .

وكانت قبيلة طيئ منقسمة، فنصفها مع المسلمين والنصف الآخر مع المرتدين، فردهم عدي بن حاتم الطائي إلى حظيرة الإسلام جميعاً وشاركوا في مجاهدة المرتدين .

نتائج وآثار الردة على الجزيرة العربية

أولاً وقبل كل شيء نحن لا نقتنع أن (ردة حقيقية) قد حدثت في جزيرة العرب في تلك الفترة من صدر الإسلام، لكن بإمكاننا أن نقول أنها (فوضى جنونية) أو (نزوة دموية) أو (ثورة عمياء)، ووراء كل خطوة منها كان هناك من يخطط لكسب مادي أو جاه أو تنفيذ حقد أرعن، ولم يكن قادة المرتدين ليهتموا سوى بذلك، لا يهمهم دين أو معتقد، أو ما إذا كان الإسلام سيحكم الجزيرة أم النصرانية أم الوثنية، لم يكن لديهم هدف ديني على الإطلاق وإن طالبوا بإسقاط أو إلغاء أو تخفيض بعض أركان الإسلام، فهم مع أنفسهم لم يكونوا ليهتموا بإسقاطها ولكنها ذرائع وحجج لجعلهم في مقدمة الصورة والحصول على الجزء الأكبر من المكاسب في حالة سقوط الدولة الإسلامية في الجزيرة، ويصفهم كاتب أجنبي بأنهم مهووسون وقد بالغوا في هوسهم هذا، حيث يقول : "لقد ظهر متهوسون كثيرون هزهم ما ناله محمد ﷺ من التوفيق فرأوا أن يدعوا النبوة أيضاً فاستطاع أحدهم أن يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه ولولا قتل بعض المؤمنين إياه لخسر الإسلام أحسن ولاياته، واقتصـــر متهوس آخر على إضافة بعض السور على القرآن ..."(٦٩) .

ويحدثنا القرآن الكريم أن الردة ستقع وسيدعي بعضهم النبوة [**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**](٧٠) أما ادعاء النبوة ففي الآية الكريمة [**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء**](٧١)، وأما ما يخص كرههم لدفع الزكاة فتقرأ [**ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مرغما ويتربص بكم الدوائر**](٧٢) . من هما نرى أن القرآن الكريم قد

حدثنا عن فتنة الردة قبل حدوثها وعن الذين يدعون النبوة وعن الذين يعترضون على الزكاة . . لذلك نقول أن في تفاصيل الذكر الحكيم آيات تروي لنا حادثة الردة كاملة .

أما النتائج والآثار فهي جرح عظيم أصاب جسد الأمة الإسلامية وبقي ينزف لفترة طويلة، فلا نود الدخول في تفاصيل المعارك وعدد الجيوش والقوات المتحاربة، ولا في الأعداد الضخمة المخيفة للشهداء من المسلمين والقتلى من المرتدين، ويكفي أن سببا من أسباب جمع القرآن الكريم في زمن الفاروق ﷺ هو استشهاد أعداد كبيرة من أصحاب النبي ﷺ وحفظة القرآن الكريم، الأرقام التي بين أيدينا للشهداء والجرحى والأسرى وقتلى الأعداء تحدثنا عن زلزال أو مصيبة عظيمة حلت بالجزيرة العربية، بسبب جشع وجهل وتآمر وخيانة رؤساء الردة الذين أعدوا العدة وقادوا الجيوش لمحاربة الإسلام والمسلمين .

لقد كانت هذه الفترة امتحاناً كبيراً للأنفس والضمائر والقلوب المؤمنة ونجى الله تعالى دينه ولو كره المرتدون .

خاتمة

كان الإسلام نوراً هبط على الجزيرة العربية بنزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، فأضاءها من أقصاها إلى أقصاها، ولكن بعض الأنفس المريضة اختبأت داخل ظلام عقولها، وانطلقت من هناك تطالب بتحقيق مآربها الخبيثة وهي تدجج نفسها بالجهل والجشع والعصبية القبلية وحنينها إلى فترة ما قبل الإسلام، فأعلن بعضها النبوة فوق ارتداده، وطالب آخرون بتخفيض الصلوات، وأراد غيرهم إسقاط الزكاة لكونهم يعتبرونها (جزية) أو (أتاوة)، وآخرون خططوا لإسقاط أو إزالة الدولة الإسلامية من جزيرة العرب والعودة إلى التبعية الأجنبية، وكانت وفاة الرسول ﷺ سبباً رئيسياً في اضطرام الفتنة وتفاقمها واستغلال خروج جيش أسامة لمحاربة الروم في الشام، فتجرأت بعض القبائل وهاجمت المدينة المنورة ووصلت إلى الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ وهو يصلي بالمسجد، واتسعت رقعة الردة بسرعة لتشمل أطراف الجزيرة كاليمن وعمان والبحرين وأطراف البصرة أيضاً وغيرها من الأماكن، ورغم أن ثلاثة من قادة المرتدين قد أعلنوا (النبوة)

ادعاءً وزيفاً في زمن الرسول ﷺ وهم الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي، لكن وفاة الرسول ﷺ جعلت عدداً آخر من رؤساء القبائل يتبعونهم في ادعاء النبوة، وكان من وراء هذه الفتنة أشخاص أعمتهم مطامعهم الشخصية عن اتباع جادة الصواب، ولم يكونوا يحملون أية فكرة حقيقية عن (انقلاب ديني) أو (ثورة عقائدية)، بل كانت أطماعاً مادية شخصية بحتة .

وعند عودة جيش أسامة بدأت المرحلة الحقيقية من مراحل تحرير الجزيرة من المرتدين، حيث عقد الصديق ﷺ (١١) راية لـ (١١) قائداً، وانطلقت جحافل المسلمين لإطفاء الفتنة وإنقاذ المسلمين الذين مازالوا على العهد كما في (عبد القيس) البحرين، وشيئاً فشيئاً همدت نار الفتنة، وكرم الله جيوش الإسلام بالنصر المبين وإعادة الجزيرة إلى حظيرة الإسلام، لتنطلق بعد ذلك بعام أو أقل الفتوحات الإسلامية التي مهد لها الرسول ﷺ وملأت الأرض نوراً وعدلاً وإيماناً .

المصادر والمراجع

١ – ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تأريخ جاهلية العرب، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨٢م ج١ ص٧٤ . كمال عبد الرحمن النعيمي، مجلة الوثيقة العدد٤١، ص٧٤ . جوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩م ص٩١ .

٢ – بن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، الهند ج١ ص٢٤+ص٥٩ . المبرد، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦م، ج١ ص٣٩٣ . الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م، ج٣ ص٢٥٩ . البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م ص٩٨ .

٣ – ابن أعثم . . مصدر سابق ص٢٥ .

٤ – ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميلاه، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٩٥٥، ق٢ ص٦٠٠ .

٥ – عمر أبو النصر، مع الجيش العربي في صدر الإسلام، مكتب عمر أبو النصر، بيروت ١٩٦٩م ص ٢٩ .

٦ – د. محمد عمارة، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧م ص٦٩ .

٧ – د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التأريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، ط٢ بيروت ١٩٧٨م ص١٤ .

٨ – ابن أعثم، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مجلد ١-٢ ص٤٠ .

٩ – مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، ط١ بيروت ١٩٧٩م ص١٩٨ . ابن سلام، الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ ص٤١١ . ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تصحيح إدوارد سخو، ليدن ١٣٢١- ١٣٤٧هـ ج٣، ق١ ص٢٣٤ .

١٠ – أحمد بن زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٥٤هـ، ج ١ ص١٤ .

١١ – المصدر السابق ص٥ .

١٢ – عمر أبو النصر . . مصدر سابق ص٢٧ .

١٣ – سورة آل عمران، آية ١٤٤ .

١٤ – دحلان، مصدر سابق ص١٠ .

١٥ – دحلان . . ص١٢ .

١٦ – دحلان . . ص٣٤ .

١٧ – ابن هشام، مصدر سابق، ق٢ ص٦٠٠ .

١٨ – دحلان . . ص٨ .

١٩ – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٧م، ج٢ ص٢٥٥ .

٢٠ – الطبري، مصدر سابق، ج٣ ص٤٢٧ .

٢١ – ابن حبيب، أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة ١٩٥٤م، ص١٥١ • الطبري، ج٣ ص٣٠٣ • البلاذري، ص ١١٤ • د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ط٣، بيروت ١٩٦٩م ص٢٨٥ .

٢٢ – دحلان . . ص٣٣ .

٢٣ – سورة البقرة، آية ٥١ .

٢٤ – سورة آل عمران، آية ٥٢ .

٢٥ – سورة القلم، آية ٤ .

٢٦ – سورة الأحزاب، آية ٥٦ .

٢٧ – سورة الأحزاب، آية ٢١ .

٢٨ – جوستاف لوبون . . مصدر سابق ص١٤ .

٢٩ – المصدر السابق ص١٤٤ .

٣٠ – عمر أبو النصر . . ص٢٩ .

٣١ – ليون كايتاني، تاريخ الإسلام، ترجمة د. أحمد عبد الرزاق، تحقيق د. محمد عمر أحمد، المكتبة العربية، بيروت ١٩٨٠م ص٢٠٧ .

٣٢ – الطبري، ج٣، ص٢٤١+٢٤٤ .

٣٣ – الكلاعي، تأريخ الردة، تهذيب خورشيد أحمد فاروق، معهد الدراسات الإسلامية، الهند ١٩٦١م ص٥ • عمر أبو النصر، ص٣٩ • دحلان . . ص٥+٧ .

٣٤ – د. أنيسة خليل المنصور، مجلة الوثيقة، العدد ٣٧ ص٦٤+٦٥ .

٣٥ – ابن أعثم . . الفتوح ص٤١ .

٣٦ – د. علي أباحسين، أرخبيل البحرين، مجلة الوثيقة، العدد ٢٩ ص١٢ .

٣٧ – د. أنيسة . . مصدر سابق ص٨٥ .

٣٨ – عمر أبو النصر . . مصدر سابق ص٣٧ .

٣٩ – د. أنيسة . . مصدر سابق ص٦٣ .

٤٠ – ابن حزم، جوامع السيرة النبوية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق – بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٤+٢٩ .

٤١ – دحلان، ص٢٩ .

٤٢ – عمر أبو النصر . . ص٦١ .

٤٣ – ابن أعثم . .ص٤٠ .

٤٤ – د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، بيت الموصل، الموصل ١٩٨٨م، ص١٥٩ .

٤٥ – عمر أبو النصر . .ص٦٠ .

٤٦ – دحلان . . ص٢٩ • ابن أعثم، الفتوح . .ص٤٠ .

٤٧ – ابن أعثم ص٤٠+٤١ .

٤٨ – ابن أعثم . . ص٤١ .

٤٩ – ابن أعثم . . ص٤٣ .

٥٠ – دحلان . . ص٢٩ .

٥١ – زهير صادق رضا، أبطال من التأريخ العربي الإسلامي، دار الشئون الثقافية، بغداد١٩٨٨، ص ٤٣٢ .

٥٢ – دحلان . . ص٢٩ .

٥٣ – ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤ ص٣٥٩ .

٥٤ – ابن أعثم . . الفتوحات . . ص٤٥ .

٥٥ – دحلان . .ص٣٠ .

٥٦ – ابن أعثـم . . الفتوحات . . ص٤٦ .

٥٧ – المصدر السابق الصفحة نفسها .

٥٨ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤ ص٣٦٧ .

٥٩ – جوستاف لوبون . . مصدر سابق ص٧٧٤ . يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٦٨م ص٢٣ . فان فلاتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد أمية، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، محمد زكي إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٦٥م ص٥+١٥ . ملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس وزملائه، دار العلم للملايين، ط٣ بيروت ١٩٧٩م، ص٧ . عمر أبو النصر . . ص٢٠ . أبو يوسف، . . الخراج . . ص٣٢ . فيليب حتي، تاريخ العرب – مطول – ص١٩٥ . خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١ ص١٢٣ . . . الخ من الآراء والمصادر والمراجع .

٦٠ – سورة آل عمران، آية ١٩ .

٦١ – سورة آل عمران، آية ٢٠ .

٦٢ – سورة آل عمران آية ٨٥ .

٦٣ – المائدة، آية ٦٧ .

٦٤ – التوبة، آية ٣٣ .

٦٥ – ابن حزم . . مصدر سابق ص١٨ .

٦٦ – المصدر السابق ص٢٨ .

٦٧ – دحلان . . ص٦٠ .

٦٨ – دحلان . .ص٢٨ .

٦٩ – جوستاف لوبون . .ص١٧٣ .

٧٠ – سورة المائدة، آية ٤١ .

٧١ – سورة الأنعام، آية ٩٣ .

٧٢ – سورة التوبة، أية ٩٨ .

أثر العرب الفكري في الجانب الش

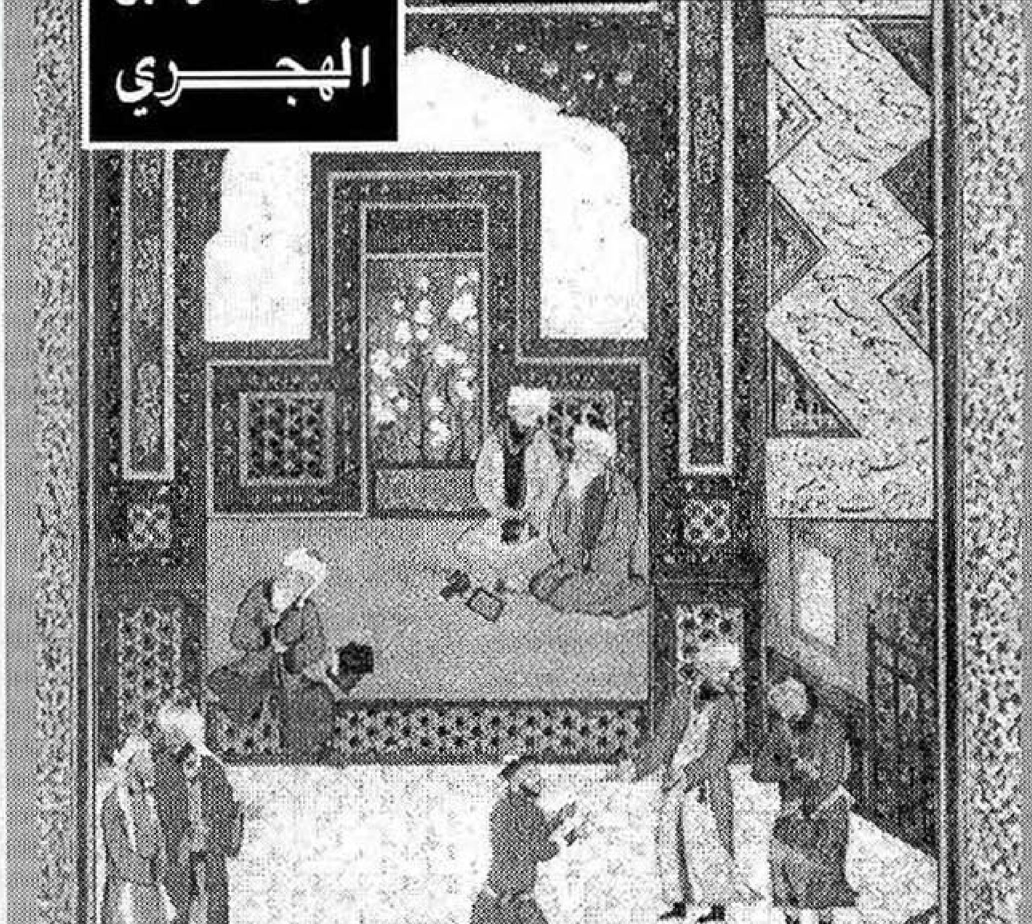
بقلم الأستاذ الدكتور
محمد كريم إبراهيم الشمري



يعد الجانب الشرقي للخليج العربي من الأقاليم الإسلامية المهمة وذلك لاعتبارات عديدة أهمها الناحية الاقتصادية، فمنذ بداية التحرير العربي له تدفقت إليه قبائل عربية كثيرة تحمل راية الفكر الجديد مفعمة بروح الإسلام الداعي إلى نشر الرسالة السماوية السمحاء، وذلك من خلال تعليم القرآن الكريم وتأدية الصلوات الخمس وبقية أركان الدين، ومما لا ريب فيه أن تطبيق فروض الدين الجديد لا تتم إلا بمعرفة اللغة العربية، وبما أن بعض الأقوام المستقرة في المنطقة هي أقوام أعجمية عدا القبائل العربية التي استقرت في السواحل الشرقية للخليج العربي[1]، فقد أخذ الرواد العرب الأوائل ومنذ التحرير العربي على عاتقهم تحقيق هذا الهدف السامي.

ـدي للخليج العربي

حتى أواخر القرن الرابع الهجري



الوثيقة ٨٢

بعد أن تم تحرير الجانب الشرقي للخليج العربي تعربت مدينة توج، بعد عبور القوات العربية الخليج العربي بقيادة عامل البحرين عثمان بن أبي العاص لِتلتقي مع الجيش الفارسي بقيادة (شهرك)، وبعد قتال مرير قُتِل قائد الفرس ودخلت القوات العربية مدينة توج فابتنت بها البناء[٢] .

فقد بنى عثمان بعد فتحها جامعاً للمسلمين وأسكن قبائل عبد القيس وغيرهم من العرب فيها[٣] . وكان عثمان قد استقر به المقام عام ٢١ هـ/٦٤١م في توج ومصَّرها، وأخذ يشن الغارات منها[٤] .

وكان من نتائج تحرير الجانب الشرقي للخليج العربي ونشر الإسلام فيه تأسيس مدينة شيراز، وهي مدينة بناها العرب، ويؤكد الاصطخري[٥] ذلك بقوله : "فأما شيراز فإنها مدينة إسلامية ليست بقديمة وإنما بنيت في الإسلام، بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج بن يوسف ..." .

وذكر الجغرافيون[٦] أن شيراز هي عاصمة المنطقة وفيها الدواوين والجيش ومقر عاملها، ويبدو الأثر العربي واضحاً عليها ، فقد أورد المقدسي[٧] أسماء بعض دروبها مثل درب أسلم ودرب غسان، ولاشك أن هذه الأسماء تشير إلى مناطق سكنى العرب فيها أو خططهم .

ويبدو الأثر العربي واضحاً في كورة أصطخر من خلال تسمية القلعة المعروفة بـ : قلعة زياد التي تحصن فيها زياد بن أبيه مدة من الزمن[٨]، وتعد هذه القلعة شاهداً صريحاً على الاستقرار العربي في الجانب الشرقي للخليج العربي ليس بالنسبة للولاة فحسب، وإنما بالنسبة للسكان العرب أيضاً الذين أعادوا بناءها أكثر من مرة[٩] . وكان الأثر العربي واضحاً أيضاً في هذه الكورة بدليل تسمية إحدى مدنها وهي مدينة البيضاء، ومازال هذا الاسم متداولاً إلى يومنا هذا[١٠] .

سيكون منهجنا في هذا البحث تقسيمه إلى أربعة مباحث، نؤكد فيها دور العرب الفكري في الجانب الشرقي للخليج العربي، ثم نشير إلى مدى تأثر الفرس بالعرب من خلال علوم اللغة العربية، علوم الحديث والفقه، علوم القرآن، كما سنبحث الرحلة العلمية في طلب الحديث وروايته إلى شيوخ المحدثين، كما سندرس هجرة العلماء إلى

المحدثين العرب من الجانب الشرقي إلى بغداد والبصرة والكوفة ودمشق ومصر وغيرها، مؤكدين حقيقة دور العرب في إرساء قواعد العلم والمعرفة في الجانب الشرقي للخليج العربي ونشر اللغة العربية وآدابها وتخريج نخبة من التلاميذ العرب وغيرهم من أبناء المنطقة في شتى العلوم والمعارف ليصبحوا حملة رسالة العلم وناشريها فيما بعد في مناطق الجانب الشرقي للخليج العربي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة وما بعدها .

(١)
المبحث الأول
عوامل ازدهار الحياة الفكرية

انطلقت بداية تعليم اللغة العربية من تعليم الصلاة وما فرضه الدين الإسلامي الحنيف من تسامح تجاه الفرس وغيرهم من القوميات الأخرى المستقرة في الجانب الشرقي للخليج العربي، جعلهم يتجهون إلى تعلم اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ولابد أن تكون هذه اللغة هي وحدها اللغة الرسمية فيها، ذلك لأن الإدارة والجيش عربيان،كما أن تعاليم الدين الإسلامي التي تضمنها القرآن الكريم نزلت باللغة العربية .

قال تعالى، بسم الله الرحمن الرحيم : "**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**"[١١]، وتمثل تعاليم القرآن الكريم في الإسلام نظرية الحكم، لذا بات من المؤكد انتشار اللغة العربية في الجانب الشرقي للخليج العربي، التي أخذت تحقيق هدفها هذا بصورة تدريجية حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أهم اللغات المتداولة فيه، وصار يتكلم بها عامة سكانه سواء أكانوا فرساً أم غيرهم من القوميات الأخرى، بل إن السكان كانوا يتكلمون بعدة لغات . يقول الاصطخري[١٢] : "ولهم ثلاثة ألسنة : الفارسية التي يتكلمون بها، وجميع أهل فارس يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم عن بعض، إلا ألفاظاً تختلف لا تستعجم على عامتهم، ولسانهم الذي به كتب العجم وأيامهم ومكاتبات المجوس فيما بينهم هو الفهلوية، التي تحتاج إلى تفسير حتى

يعرفها الفرس، ولسـان العربية به مكاتبات السلطـان والدواوين وعامـة الناس ونفهم من نص الاصطخري وجود ثلاث لغات في الجانب الشرقي من الخليج العربي هي : الفارسية والفهلوية والعربية، وكانت العربية لغة الإدارة والدواوين وعامة الناس أي لغة المواطن المسلم البسيط وليس المثقف فحسب . كما كانت لغة الأمراء، ومن خلال اللغة العربية تم المزج الحضاري بين حضارتين بحيث ذابت الفوارق وتكون مزيج اجتماعي واحد عماده الدين الإسلامي واللغة العربية .

وعبر فيليب حتي[١٣] عن أهمية اللغة العربية وتعلمها من قِبَل معتنقي الإسلام، بقوله : "... وأخذت معالم الجنسيات المختلفة تذوب في بوتقة الإسلام، بحيث أن المسلم بقطع النظر عن جنسيته القديمة أصبح حين اعتنق الإسلام وتعلم العربية وكتبها من أبناء العربية" . والحقيقة هي ما قالها، فالقومية العربية ليست قومية شوفينية متعصبة وإنما هي قومية متفتحة على القوميات الأخرى .

لم تكن اللغة العربية في الجانب الشرقي للخليج العربي كما يريدها العرب أنفسهم، فهي لم تخْلُ من الشوائب ولم تكن صافية المعاني كما هي في جزيرة العرب، ومهما تكن فهي لغة جديدة في المنطقة، وقد وصف المقدسي[١٤] سكان مدينة شيراز بقوله : "ولهم خصائص وصنائع وعقل ودهاء، ومعروف وصدقات وبهاء، ومشايخ ووجوه وتناء وأسناد لولا لحن المستملي وصاحب الإملاء ..." . وفي النص تأكيد أن المجالس العلمية تدرس علومها باللغة العربية لكن يشوبها اللحن وهذا أمر طبيعي، كما أن خطب الجمعة في المساجد كانت تقرأ باللغة العربية أيضاً، ووصف هذا الجغرافي العربي حين زار مدينة شيراز في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أنه كان يجد صعوبة في سماع الخطبة، وذلك بسبب صياح المتسولين[١٥]، وعلى هذا الأساس لابد أن تكون خطبة الجمعة في جامع شيراز تلقى باللغة العربية، وإلا لما استطاع المقدسي فهمها .

إن استخدام اللغة العربية في هذه المنطقة بهذا الشكل أدى إلى أن تصبح لغة المخاطبة والعلم والدين، وهذا يوضح لنا دور أصحاب هذه اللغة وهم العرب، إذ أن انتشار لغة ما وتطورها بحيث تصبح لغة العلم العامة، يعطينا دلالة على ميزات تلك اللغة والدور الرئيسي لأهلها في تطور الحياة الفكرية[١٦] .

تأثر الجانب الشرقي للخليج العربي بما حوله من مراكز الإشعاع الفكري، فقد انتشرت فيه المذاهب الدينية التي نشأت في البصرة والكوفة وبغداد وغيرها من المدن العربية، وتأثرت المناطق الساحلية منه بأفكار الفرق الدينية البصرية، وذلك لعدة اعتبارات منها فيما نرجح :

١ – تعد منطقة الساحل الشرقي للخليج العربي ومدينة البصرة ذات نسيج اجتماعي متشابه إن لم يكن واحداً، من حيث التركيب القبلي . لذا انتشرت فيه نفس الأفكار الدينية .

٢ – وجود العلاقات الاقتصادية المتطورة بين البصرة وهذه المنطقة، بسبب كثرة موانئها وارتباطها تجارياً بميناء البصرة .

٣ – اعتبار البصرة القاعدة الفكرية والإدارية والعسكرية الثانية والمهمة في العالم الإسلامي – بعد المدينة المنورة – أخذت على عاتقها مهمة تحرير مناطق شاسعة في بلاد فارس والأقاليم الأخرى في المشرق، ونشر الإسلام واللغة العربية فيها، أي أن العرب لهم الدور الرئيسي في تعريب تلك المناطق، من خلال نشرهم اللغة العربية، لغة القرآن الكريم ومادة الصلاة الرئيسية في الدين الإسلامي الحنيف، ومن خلالهم دخل المشرق الإسلامي مرحلة جديدة من التطور .

أدت تلك الاعتبارات مجتمعة إلى أن تتأثر المنطقة الساحلية من الجانب الشرقي للخليج العربي بشكل خاص والمنطقة بأكملها بشكل عام، بالفكر الديني البصري . فانتشرت أفكار ومذاهب وفرق دينية كثيرة مثل المعتزلة أو القدرية(١٧) وغيرهما في ذلك الجانب، ومن هنا يتضح لنا بجلاء دور الحركة الفكرية في البصرة وأثرها في نشر العلوم والمذاهب الفكرية في هذه المنطقة الحيوية المهمة سواء في المناطق الساحلية منها أو في المناطق الداخلية – كما سنوضح .

دانت مدن شيراز واصطخر وفسا وغالبية مدن المنطقـة بمذاهب أهل السنة والجماعة . ويؤكد الاصطخري(١٨) ذلك بقوله : "وأما الصدود فإن شيراز واصطخر وفسا الغالب عليهم مذاهب أهل الجماعة على مذاهب أهل بغداد، والغالب على أهل فارس في الفتيا مذهب أهل الحديث"، ويبدو لنا انتشار مذهب الإمام الشافعي في الجانب

الشرقي بنطاق واسع على الأقل في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ويؤكد الشيرازي[١٩] ذلك بقوله : "وبفارس خلق كثير من أصحابنا" .

تجاوز التأثير العربي الجانب الفكري سواء الديني منه أو اللغوي (أي ما يتعلق بالمدارس اللغوية) إلى الجانب الحضاري، فأخذ سكان المنطقة يحاكون العرب في مدينتي البصرة والكوفة في كل شيء حتى في الملابس، ووصف الاصطخري[٢٠] ملابس أهل فارس بقوله : "... وأما زيهم فهو زي أهل العراق"، كما وصف الحميري[٢١] ملابس أهل مدينة البيضاء من كورة اصطخر بقوله : "وأهلها مياسير وزيهم زي العراقيين في اللباس والعمائم" .

لقد سبق لنا وأن ذكرنا آثار الاستقرار العربي في الجانب الشرقي للخليج العربي، ومنها تسمية إحدى مدن كورة اصطخر، وهي مدينة البيضاء باسم عربي خالص، فهذا يدلنا على انتشار الحضارة العربية في هذه المنطقة إلى الحد الذي ذابت فيه أعظم مقومات الحضارة الفارسية، وهي اللغة الفارسية والعادات الاجتماعية، فأخذوا يقلدون أهل العراق في الزي كما ذكر ذلك الاصطخري والحميري، فإن لم تنته أو تندثر مقومات الحضارة الفارسية بشكل نهائي، فإنها تشبعت بكل ما هو عربي، ودليلنا على ذلك ما في اللغة الفارسية اليوم من أعداد كبيرة جداً من مفردات اللغة العربية، لغة القرآن الكريم التي تعلمها الفرس بعد دخولهم الدين الإسلامي الحنيف .

الأهمية العلمية للجانب الشرقي :

إن بلوغ الجانب الشرقي هذا المبلغ العظيم من الاتساع الفكري سواء في العلوم الدينية أو اللغوية، كان بسبب استقرار العرب فيه وارتحال العلماء العرب إليه واستقرارهم فيه، مما جعله حلقة مهمة من الحلقات التي يمر بها طالب العلم، سواء كان محدثاً أم فقيهاً أم لغوياً، فالكثير ممن أصبح فيما بعد من أعلام الفكر العربي والإسلامي أخذ جزءاً لا يستهان به من العلم في هذا الجانب، فالشيخ أبو العباس الميكالي سمع كتاب الموطأ في الحديث للإمام مالك في هذه المنطقة في القرن الرابع الهجري[٢٢]، وكان

هذا الجانب أحد الأماكن التي أخذ منها الإمام أحمد بن حنبل علم الحديث[٢٣]، كما إن الحافظ الكبير يعقوب بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري صاحب المسند الصحيح أبو عوانة الاسفراييني ورد المنطقة واتخذها إحدى حلقات سلسلة رحلته العلمية[٢٤]، وتزخر كتب الرجال والحديث بمن سمع أو أخذ العلم في الجانب الشرقي أو إحدى مدنه، بل إن مدن اصطخر وشـــيراز وســـيراف وأرجان برزت في علوم اللغة العربية سيما مدينة شيراز[٢٥].

وفي القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي كانت مجالس الأمراء موئلاً للعلماء في شتى المجالات[٢٦]، إلى درجة أن عضد الدولة البويهي كان يقول : "أنا غلام أبي علي النحوي الفسوي في النحو"[٢٧]. وهذا دليل على اهتمام الحكام في ذلك العصر باللغة العربية، فضلاً عن أهميتها وقوة تأثيرها خاصة في السياسة، لأن السياسيين كانوا من الأدباء والعلماء[٢٨].

أصبح الجانب الشرقي للخليج العربي في القرن الرابع الهجري هدفاً مهماً، قصده الشعراء العرب ممن يحترفون شعر المديح، فقد زار البعض منهم مدينة شيراز لمدح الأمراء والحصول على جوائزهم، منهم الشاعر المتنبي ومدح أميرها[٢٩] ونستدل على اهتمام الأمراء بالشعر نظراً لجزالة شعر المتنبي وصعوبته .

مما سبق تتضح لنا أهمية الجانب الشرقي للخليج العربي العلمية واللغوية بالذات، وسترد من خلال تراجم العلماء واللغويين الكثير من الدلائل على هذه الأهمية، كما أن بلوغ الحركة الفكرية في الجانب الشرقي هذا الحد من التطور يشير إلى أن نسبة كبيرة من العرب قد استقرت فيه[٣٠]، وذلك لأن الحركة الفكرية اقتصرت طوال العصور الإسلامية على الأماكن التي استقر فيها العرب دون غيرها[٣١]، وتنقسم الحركة الفكرية في الجانب الشرقي للخليج العربي إلى عدة علوم سنوضحها لاحقاً .

(٢)

المبحث الثاني

علوم اللغة العربية

يبدو أثر العرب واضحاً في الجانب الشرقي للخليج العربي من خلال بروز عدد كبير من علماء اللغة العربية فيه، سواء من العرب أو غيرهم ممن نبغ في علوم العربية وألف فيها ، بل أصبح هذا الجانب من الأقاليم التي يُطلب فيها علم العربية وخاصة في مدينة شيراز[٣٢]، كما أنها أمست في القرن الرابع الهجري من أهم مدن الجانب الشرقي الذي يعد من الأقاليم المهمة التي تملى فيها المؤلفات اللغوية من قِبَل علماء اللغة العربية[٣٣] .

من هنا تتضح لنا أهمية هذا الجانب ودوره في الحياة الفكرية بما فيها علوم اللغة العربية، وقد برز الكثير من العلماء فيه في علوم اللغة العربية في النحو وغيره، منهم :

١ – ابن دريد :

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حماس الدريدي الدوسي الأزدي[٣٤]، عربي ينسب إلى قرية يقال لها : "حماما" من نواحي عُمان[٣٥] . ولد في البصرة[٣٦] في سكة صالح عام ٢٢٣هـ/٨٣٧م، وقضى معظم حياته متنقلاً بين البصرة والجانب الشرقي، ويقول ابن النديم[٣٧] في ذلك : "وأقام بالبصرة ثم مضى إلى عمان فأقام بها مدة ثم صار إلى جزيرة ابن عمارة[٣٨] فسكنها مدة ثم صار إلى فارس فقطنها ثم صار إلى بغداد ونزلها . . ." .

ويبدو لنا من خلال هذا النص أن ابن دريد استقر في جزيرة أو سيف (ساحل) آل عمارة – وهم من بني الجلندي من الأزد – مدة طويلة دون تحديد ذلك، ومن الواضح أنه قدم منها إلى بغداد بعد أن كبرت سنهُ[٣٩] .

كان ابن دريد عالماً باللغة العربية وأشعار العرب . تتلمذ على علماء البصرة وأخذ عنهم، أمثال : أبي حاتم الرياش والتوزي والزيادي[٤٠] وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي، كما روى عنه عدد كبير من علماء اللغة العربية منهم : أبو سعيد السيرافي

وعمر بن محمد بن يوسف وأبو بكر بن شاذان وأبو عبد الله المرزباني وأبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني وغيرهم[٤١] .

ولابن دريد شعر كثير اشتهر به خصوصاً مقصورته المشهورة[٤٢] التي شُرِحت أكثر من مرة، يقول الحموي[٤٣] عنه : "وقال أبو الطيب اللغوي في كتاب مراتب النحويين عند ذكر ابن دريد : هو الذي انتهت إليه لغة البصريين وكان أحفظ الناس وأوسعهم علماً، وأقدرهم على شعر [كذا] وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد . وتصدر ابن دريد في العلم ستين سنة" .

وقد وصف ابن دريد بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء[٤٤]، ووصفه السمعاني[٤٥] بقوله : "... وكان رأس أهل العلم والمقدم في حفظ اللغة والأنساب وأشعار العرب وله شعر كثير رائق ..." .

ألف ابن دريد الكثير من المؤلفات منها : كتاب الجمهرة في اللغة، والمجتبى والأمالى، واشتقاق أسماء القبائل، والملاحن، والمقتبس، والمقصور والممدود، والخيل الكبير، والخيل الصغير، والسرج واللجام، والوشاح، والأنواء، والسلاح، وغريب القرآن، وأدب الكاتب، وغيرها كثير[٤٦] .

اختُلِف حول كتاب جمهرة اللغة، لاختلاف النسخ إذ ألفه بن دريد في بلاد فارس، ويقول ابن النديم[٤٧] عن هذا الكتاب : "... مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان لأنه أملاه بفارس فأملاه ببغداد من حفظه فلما اختلف الإملاء زاد ونقص ..." . ويتضح لنا من هذا النص أن ابن دريد وضع كتابه هذا في الجانب الشرقي من الخليج العربي في سيف آل عمارة لدى أبناء عمومته من الأزد مالكي هذا السيف[٤٨]، وأملاه على تلامذته هناك، وهذا يدلل على أن ما أنتجه هذا اللغوي العربي البصري كان عليه إقبال شديد هناك، ودليلنا على ذلك تداول كتبه وكثرة نسخ هذا الكتاب، فكان للغة العربية وعلومها طلابها في هذه المنطقة، وتوفي ابن دريد عام ٣٢١هـ/٩٣٣م[٤٩] .

٢ – أبو بكر الجوري[٥٠] :

أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عمران بن موسى الجوري الأديب النحوي، والراجح أنه عربي على الرغم من إغفال المصادر لهذا الأمر، ونستنتج ذلك من خلال نص

الحموي[٥١] إذ يقول : "وكان من الأدباء المنقرين علاّمة في معرفة الأنساب وعلوم القرآن ..."، وهذا يؤكد عروبته لمعرفته بأنساب العرب .

تتلمذ الجوري على يد أبي بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي وأبي الفضل حماد بن مدرك ومحمد بن جعفر بن درستويه[٥٢] وعبد الله بن عامر العامري[٥٣]، وهكذا كان معظم شيوخ الجوري من العرب إن لم يكونوا كلهم، ومن هنا لابد أن تكون ثقافته العربية وعلمه لا تشوبهما العجمة مطلقاً، وقد أضاف إلى علمي الأنساب والنحو اللذين برع بهما، أضاف علوم القرآن أيضاً[٥٤]، توفي أبو بكر الجوري عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م[٥٥] .

٣ – الحسن بن أحمد :

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبو علي الفارسي النحوي[٥٦]، وهو عالم عربي، ذكر القفطي[٥٧] ذلك بعد أن أورد اسمه كاملاً فقال : "... وأمه في ربيعة الفَرَسْ، سدوسية، من سدوس شيبان"، ولابد أن يكون والده عربياً أيضاً، وقد أوضح القفطي[٥٨] استقرار قبيلة ربيعة الفرس في الجانب العربي، وسميت جزيرة قيس نسبة إلى قيس بن عميرة في ربيعة الفرس، وكان قد نزلها واستقر فيها هو وأهله بعده، ثم استولت عليها الأعاجم بعد ذلك، فهذه الجزيرة هي جزيرة عربية، لأن العرب هم أول من استقروا فيها وبنوا بها البناء وجعلوها ميناءً عامراً بالحركة ترسو به السفن[٥٩] .

ومن المعروف أن المؤلفين أخذوا ينسبون الأعلام والرجال إلى مدنهم أو أقاليمهم، لذا نسب هذا العالم النحوي – فيما يبدو – إلى فارس مرة، وأخرى إلى المدينة التي ولد فيها وهي مدينة فسا[٦٠] .

استقر أبو علي الفسوي في مدينة بغداد وأخذ من علمائها النحو وبرع في هذا العلم، وتتلمذ على يديه الكثير من علماء النحو في عصره، وبرز منهم عثمان بن جني وعلي بن عيسى الربعي الشيرازي[٦١]، وبما أن العلماء لا غنى عنهم في مجالس الحكام، لذا قصد أبو علي الفارسي سيف الدولة الحمداني أمير حلب وأقام عنده عام ٣٤١هـ/٩٥٢م، وجرت بينه وبين المتنبي مجالس، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي وأقام في شيراز، وجالس أميرها عضد الدولة البويهي وعلت منزلته عنده[٦٢] .

وهكذا يتضح لنا أثر اللغة العربية على غير العرب، فعضد الدولة ديلمي وليس عربياً وهو يصر على أخذ العلم والنحو بالذات من هذا الشيخ، وألف أبو علي له

كتاب : (الإيضاح والتكملة) في النحو[٦٣]، ووصف أبو علي من قِبَل تلامذته بأنه : "... فوق المبرد وأعلم[٦٤].

ألف هـذا النحوي الكثير من المؤلفـات منها : كتاب الإعـراب، وكتاب الإغفال[٦٥]، وكتاب التذكرة، وكتاب المقصور والممدود، والكثير من كتب المسائل منها : الشيرازيات، والحلبيات، والبغداديات، والقصريات، والعسكرية، والبصرية، والمجلسيات، وغير ذلك[٦٦].

يعد أبو على الفسوي من أعمدة اللغة العربية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد اتهم بالاعتزال، ويبـدو أنه حقـاً كان من المعتزلة، إذ وصفه الجغرافي ابن حوقل[٦٧] في حديثه عن مدينة فسا بقوله : "... ومنها شيخنا الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفقيه النحوي المتكلم وهو في حِلة المعتزلة" . توفي أبو علي عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م ودفن ببغداد[٦٨].

٤ – العلاف :

أبو بكر هبة الله بن الحسين بن محمـد بن الفضل بن إسماعيل بن سعيد السدوسي[٦٩]، عربي من أبناء مدينة شيراز، أديب نحوي يعرف بـ : العلاف[٧٠]، وصفه الثعالبي[٧١] بقوله : "... كان بفارس للأدب مجمعاً، وللشعر مفزعاً، مع التصرف في مدارج الأحكام والمعرفة بشعب الحلال والحرام، والقبول التام، عند الخاص والعام ..."، ويبدو أنه كغيره جالَس أمير شيراز وله أشعار فيه[٧٢]، وقد رحل في طلب العلم إلى خراسان وما وراء النهر، وسمع حماد بن مدرك وإبراهيم بن حميد وأحمد بن الأغر ومحمد بن جعفر التمار وغيرهم[٧٣]، وسمع منه الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري وذكره في تاريخ نيسابور وأثنى عليه[٧٤].

تجاوز العلاف التسعين عاماً من عمره ولم يشب شعر رأسه حتى قال شعـراً في ذلك[٧٥]، ونسب العلاف كما نسب غيره من العلماء العرب إلى بلاد فارس، بسبب طول استقراره فيها فأُطلق عليه : العلامة الفارسي[٧٦]، وتوفي عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م بشيراز[٧٧].

٥ – الربعي[٧٨] :

علي بن عيسى بن الفرج بن صالح، أبو الحسن الربعي النحوي، عربي من مدينة شيراز استقر في بغداد[٧٩]، ولد عام ٣٢٨هـ/٩٣٩م وأخذ العلم ببغداد من الأديب النحوي

أبي سعيد السيرافي ثم خرج إلى مدينة شيراز فدرس على يد أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفسوي ثم عاد إلى بغداد حتى وفاته. ويبدو أن رحلته إلى شيراز لم تكن مؤقتة، حيث استمر بقاؤه فيها يتعلم النحو على الفسوي قرابة عشرين عاماً(٨٠) .

كان الربعي من أساتذة علم النحو في عصره بدليل أن شيخه أبا علي الفسوي شهد له بذلك كما في النص التالي : "... وقال أبو علي [الفسوي الفارسي] : قولوا لعلي البغدادي [الربعي] لوْ سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك"(٨١)، والمقصود بقوله : أنحى منك، أي أنك لم تجد من يتقن ويضبط النحو أكثر منك، بمعنى أن الفسوي خاطب الربعي بأنه لو سار من الشرق إلى الغرب لم يجد أحداً يضبط النحو أكثر منه (أي الربعي)، وهذه شهادة حق له تؤكد مقدرته وكفاءته العاليـــة في علم النحو العربي .

ألف الربعي العديد من المؤلفات، منها : شرح كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وشرح مختصر الجرمي(٨٢)، ويعد الربعي من أبرع تلامذة أبي علي في النحو(٨٣)، توفي عالم النحو العربي الربعي الشيرازي عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ببغداد(٨٤) .

حفل الجانب الشرقي للخليج العربي بنخبة من العلماء الذين استقروا فيه وعنوا بعلوم اللغة العربية، منهم عبد الله بن هارون أبو محمد التوزي(٨٥)، وكان يدعى بـ :القرشي، وهو أعلم من الرياش والمازني، روى عن أبي عبيدة وقرأ على الأصمعي، له عدة مؤلفات منها : كتاب الأمثال وكتاب الأضداد وكتاب الخيل وكتاب فعلت وأفعلت وكتاب النوادر، توفي عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م(٨٦) .

وبرز أيضاً القاسم بن إسماعيل المعروف بـ : أبي ذكوان، استقر هذا النحوي في مدينة سيراف أيام تمرد الزنج في البصرة فوصلها هارباً من البصرة(٨٧)، أي أنه كان حياً في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهو بصري ومن المرجح أن يكون عربياً، ويعد من أعلام النحو لكنه لم يشتهر شهرة المبرد، وقد ألف كتاباً في معاني الشعر، رواه عنه ابن درستويه(٨٨) .

ومن علماء اللغة العربية البارزين في هذا الجانب يوسف بن الحسن بن عبد الله السيرافي أبو محمد، ألف عدة مؤلفات منها : كتاب الإقناع وكتاب شرح أبيات سيبويه

وكتاب شرح أبيات إصلاح المنطق وكتاب شرح أبيات الغريب المصنف لأبي عبيدة، توفي عام ٣٨٥هـ/٩٩٥م[٨٩].

أما أشهر أعلام الفرس في النحو ممن تتلمذوا على يد العرب وبرعوا في علوم العربية وألفوا فيها، فأبرزهم :

١ – سيبويه :

هو عمرو بن عثمان بن قمبر، مولى ابن الحارث بن كعب بن عمرو بن عُله بن جلد بن مالك بن أدد، أبو بشر المعروف بـ : سيبويه النحوي[٩٠]، وهو من كورة اصطخر في الجانب الشرقي للخليج العربي، ويبدو أنه من مدينة البيضاء العربية من أعمال هذه الكورة[٩١].

ونظراً لأهمية البصرة العلمية فقد عزم سيبويه على طلب العلم فيها، فبدأ حياته العلمية بكتابة الحديث ولزم حلقة حماد بن سلمة، لكن يبدو أنه لم يكن يتقن اللغة العربية أو أنه أخطأ في بعضها، فعوتب على ذلك لذا اتجه إلى تعلم اللغة العربية وترك علم الحديث وتتلمذ سيبويه على الخليل بن أحمد الفراهيدي حتى برع في علم النحو[٩٢]، إلى حد كبير أطلق عليه ابن الجزري[٩٣] لقب إمام النحو.

ألف سيبويه كتاباً في علم النحو وهو من أفضل الكتب التي ألفت في هذا العلم، ووصف هذا الكتاب القاسم بن سلام بأنه هو الإمام فيه، أي في علم النحو، وبلغت قيمته مبلغاً عظيماً بحيث أصبح أثمن الهدايا وأجملها[٩٤]، ولم يعمر سيبويه طويلاً بل إنه لم يتجاوز العقد الرابع من عمره، وتوفي عام ١٨٠هـ/٧٩٦م[٩٥]، ودفن في مدينة شيراز[٩٦].

٢ – ابن درستويه :

هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفسوي، من أبناء مدينة فسا في الجانب الشرقي للخليج العربي، ولد عام ٢٥٨هـ/٨٧١م[٩٧].

تتلمذ بن درستويه على المبرد[٩٨] وكذلك على بن قتيبة، ومن المحتمل أنه لم يدرس علم النحو في هذه المنطقة، أو أنه أراد أن يأخذ العلم في بغداد، لذا غادرها وسكن بغداد وحتى وفاته[٩٩].

ألف بن درستويه عدة كتب في علوم اللغة العربية، أبرزها كتاب الإرشاد في علم النحو وكتاب الهجاء وكتاب الجرمي[١٠٠]، ولا نستبعد أن يكون ابن درستويه عربياً في ثقافته إن لم يكن في نسبه الذي أغفلته المصادر، فمؤلفاته الكثيرة هذه في اللغة والنحو والشعر وتفسير القرآن والحديث تعطينا انطباعا واضحاً أن ثقافته العربية واسعة جداً، وهو على الأقل قد أخذ العلم في بادئ الأمر في مدينته فسا بفارس، إذ كانت اللبنة الأساس في بناء هذه الثقافة، وصفه الخطيب البغدادي[١٠١] بأنه "حجة في اللغة". توفي ابن درستويه في بغداد عام ٣٤٧هـ/٩٥٨م[١٠٢].

٣ – السيرافي :

أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، نسبة إلى سيراف وهي ميناء على الساحل الشرقي للخليج العربي، أصله من الساحل الشرقي ومولده في سيراف وقد طلب العلم بها، ونستنتج أن سيراف لا تقل أهمية عن بقية مدن هذا الساحل، بدليل طلب أبي سعيد السيرافي العلم فيها في بادئ الأمر؛ بسبب وقوعها على ساحل الخليج العربي الشرقي وقربها من عمان، لذا كانت المرحلة الثانية للسيرافي هي الرحلة إلى عمان، وبعد أخذه العلم فيها عاد إلى مدينته، ومن ثم رحل إلى مدينة عسكر مكرم في إقليم الأحواز[١٠٣]، ثم رحل إلى بغداد فاستقر به المقام فيها[١٠٤].

تتلمذ السيرافي على يد علماء عدة، قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد، واللغة على بن دريد، والنحو على أبي بكر بن السراج النحوي[١٠٥]، وتتضح لنا أن السيرافي ليس نحوياً فقط، بل كان ملماً بعدة علوم منها علوم اللغة العربيــــة، وصفه الخطيب البغدادي[١٠٦] بقوله : "... وكان أعلم الناس بنحو البصريين وينتحل في الفقه مذهب أهل العراق".

ألف السيرافي عدة مؤلفات أكبرها شرح كتاب سيبويه، وكتاب ألِفات الوصل والقطع، وكتاب أخبار النحويين، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب صنعة الشعر والبلاغة وشرح مقصورة ابن دريد[١٠٧] وكتاب الإقناع[١٠٨]، وكتابه (شرح كتاب سيبويه) في النحو من الكتب الكبيرة جداً إذ بلغ حجمه عشرين مجلداً[١٠٩].

وكان السيرافي قد تولى القضاء ببغداد[110]، ووصف بالاعتزال[111]، كما اتسم بالزهد والعفة، حتى أنه كان يأكل (يعيش) من نسخه للكتب[112].

يعد السيرافي من أعلام النحو والعربية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكانت وفاته عام ٣٦٨هـ/٨٨١م[113].

إن هذه الحصيلة الوافرة من العلماء اللغويين والنحويين وكثرة مؤلفاتهم تعطينا انطباعاً واسعاً عن مدى انتشار اللغة العربية في الجانب الشرقي للخليج العربي، سيما في مدن شيراز وفسا وسيراف وتوّج، ومن المؤكد أن هذه المدن كانت تسكنها أعداد كبيرة من العرب، لذا انتشرت فيها علوم اللغة العربية أكثر من غيرها من المدن في هذا الجانب، فضلاً عن انتشار علوم الحديث والفقه وعلوم القرآن.

(٣)

المبحث الثالث

علوم الحديث والفقه

١ – علوم الحديث :

تأخر تدوين أحاديث رسول الله (ص) بعد وفاته، على الرغم من الاعتقاد بأنها دونت ورسول الله (ص) مازال على قيد الحياة[114]، ومن المؤكد أن علوم الحديث سبقت علوم اللغة العربية في الجانب الشرقي، وذلك نظراً لحاجة المسلم في تفسير كثير من الأمور المتعلقة بالعبادات والتي لم يرد فيها نص قرآني خاصة.

وعلى هذا الأساس انبرى العرب بعد حركات التحرير العربية الإسلامية إلى تعليم أبناء الجانب الشرقي للخليج العربي سنن رسول الله (ص)، ويبدو لنا أن عملية تدوين هذا العلم تأخرت كسابقتها (علوم اللغة العربية)، فنجد التراجم المدونة لمن عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ولا نعتقد بأي حال من الأحوال أن بداية علوم

الحديث فيه بدأت قبيل القرن الثالث الهجري بقليل، وإنما نرجح أنها بدأت مع دخول العرب إلى هذا الجانب، وذلك بسبب الحاجة الدينية الملحة لهذا العلم. ويبدو لنا أيضاً أن من أسباب تدوين كتب الحديث شيوع الوضع أي الأحاديث الموضوعة عن الرسول (ص)، وهي غير صحيحة بل منسوبة إليه، لذا بات التصدي لهؤلاء وكشفهم واجباً دينياً بالدرجة الأولى .

ذكرت كتب التراجم والرجال أوائل المحدثين في هذا الجانب ومعظمهم من العرب منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، فقد حدث القاضي صالح بن بيان الثقفي ويقال : العبدي الذي عرف بـ : الساحلي[١١٥]، وهو من أهل مدينة الأنبار عربي تولى قضاء مدينة سيراف، روي الحديث عن شعبة وسفيان الثوري وفرات بن السائب وعبد الرحمن المسعودي، روى عنه الحديث الفضل بن سخيت ومحمد بن خلف الحداد وأحمد بن مطهر وغيرهم[١١٦] . عاش الثقفي في القرن الثالث الهجري وذلك استناداً لذكر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم وكلهم ممن كان حياً في ذلك القرن .

وحدث في مدينة شيراز قاضيها عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي[١١٧] الشيرازي، عالم عربي جليل روى الحديث عن يحيى بن يونس وأحمد بن الفرج وإسماعيل بن شهريار وغيرهم[١١٨]، توفي قبل عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م ببغداد[١١٩] . وأحمد بن الفرج الجشمي[١٢٠] الجوري، عالم عربي ومحدِّث بارع روى الحديث عن زكريا بن يحيى بن عمارة الأنصاري وحفص بن أبي داود الغاضري[١٢١] وعبد الله بن صالح العجلي[١٢٢]، وحدث عنه أبو حنيفة الواسطي[١٢٣]، ويبدو لنا أنه عاش بعد شيخه العجلي المتوفى عام ٢٢٠هـ - كما ذكرنا .

وظهر محدثون آخرون في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، اشتهر منهم المحدث العربي أبو عمرو محمد بن عمرو بن سختويه الكندي[١٢٤] الشيرازي، وقد نسب إلى سكن عائلته سكة سختويه في مدينة شيراز، فهو شيرازي المولد، روى الحديث عن إسماعيل بن الصلت، وروى عنه محمد بن شاذان، توفي عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م[١٢٥] .

ومن محدثي القرن الثالث الهجري، المحدث إسحاق بن إبراهيم، روى الحديث عن جده سعد بن الصلت قاضي شيراز وغيره من المحدثين . توفي عام ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م[١٢٦]، واشتهر من المحدثين أيضاً أبو عبيد الله بن موسى بن صالح الاصطخري،

روى الحديث عن الحجاج بن نصير الفساطيطي وعباد بن صهيب، توفي عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م[١٢٧].

وحدث في شيراز في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي علي بن محمد الزيادأبادي[١٢٨] الشيرازي، روى عن سلمة بن نوح، وروى عنه عبد الله بن محمد وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن منصور المتوفى عام ٣١٨هـ/٩٣٠م[١٢٩]، وحدث عنه أيضاً السختاني[١٣٠] والأزركاني[١٣١]، وبهذا يكون الزيادأبادي حياً في القرن الثالث الهجري، لأن رواة حديثه ممن توفوا في العقدين الأول والثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

وفي القرن الرابع الهجري ظهر عدد كبير من المحدثين في الجانب الشرقي للخليج العربي، نذكر منهم :

١ — حماد بن مدرك :

أبو الفضل حماد بن مدرك بن حماد الفسنجاني[١٣٢]، راوية للحديث حدث عنه كثير من المحدثين، روى الحديث عن أبي عمرو الحوضي[١٣٣]، وكان يحدِّث في مدينة شيراز[١٣٤]، توفي عام ٣٠١هـ/٩١٣م[١٣٥]. ونرجح أنه من أبناء العرب.

٢ — الضبي[١٣٦] الشيرازي :

أبو عبد الله محمد بن خفيف الضبي الشيرازي[١٣٧]، عربي من شيراز، وشيخ من مشايخها، كان عالماً متصوفاً فقيهاً، عالماً في علم الأصول، صحب رويماً وأبا العباس ابن عطاء، وأبا عمرو الدمشقي[١٣٨]، وكان شيخ وقته، روى الحديث عن حماد بن مدرك وعبد الملك بن خليد بن رواحة وأبي المثنى أحمد بن إبراهيم، وروى عنه الحديث ابن باكويه الشيرازي والقاسم القشيري وأولاده[١٣٩].

وصفه الذهبي[١٤٠] بقوله : "ومحمد بن خفيف الزاهد، أبو عبد الله الشيرازي شيخ فارس، وصاحب الأحوال والمقامات ..."، ويبدو أنه كان من أولاد الأمراء في هذه المنطقة فتزهد[١٤١]، ووصفه السلمي[١٤٢] بقوله : "... وكان عالماً بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق. أوحد المشايخ [في وقته] حالاً، وعلماً، وخلقاً"، توفي الضبي عام ٣٧١هـ/٩٨١م[١٤٣].

٣ – آل الخرجوشي :

عائلة عربية من أهل شيراز نبغ منها عدة محدثين منهم : أبو عبيد الله محمد بن جعفر بن أحمد بن خرجوش بن عطية بن معن بن بكر بن شيبان بن منيع الخرجوشي الشيرازي[١٤٤]، وسلسلة نسبه توضح بجلاء أنه عربي، من عرب شيراز، روى الحديث عن أبي بكر محمد بن يحيى الفارسي[١٤٥]، وأبي العباس المطوعي[١٤٦]، وروى عنه الحديث ابنه أبو الحسين عبيد الله بن محمد بن عبيد الله ولم يحدث عنه غيره، وكانت لابنه هذا رحلة إلى العراق سمع بها من ابن مبشر الواسطي وابن مخلد العطار وغيرهما، توفي عبيد الله بشيراز عام ٣٩٠م[١٤٧] .

وحدث آخرون من غير العرب نذكر منهم :

١ – بدر الحمامي :

أبو النجم بدر مولى الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)، المعروف بـ : الحمامي، وهو بدر الكبير الذي تولى مناصب سياسية مهمة في مصر، ثم تولى عمل فارس وكان أميراً عليها حتى وفاته عام ٣١١هـ/٩٢٣م، روى الحديث عن ابن رماحس العسقلاني، وروى عنه ابنه أبو بكر محمد[١٤٨] .

٢ – محمد بن بدر الحمامي :

أبو بكر محمد بن بدر، والده غلام أحمد بن طولون أمير مصر، قام بعد وفاة أبيه مقامه في إدارة الجانب الشرقي للخليج العربي عام ٣١١هـ، ثم عاد بعد انتهاء مدة ولايته على المنطقة إلى بغداد، وحدث بها عن الدمياطي وحماد بن مدرك وأبي عبد الرحمن النسوي وروى عنه الدارقطني وأبو نعيم الأصبهاني وبشري بن عبد الله الفاتني . توفي عام ٣٦٤هـ/٩٧٤م، وكان محدثا ثقة[١٤٩] .

٣ – ابن درستويه[١٥٠] :

حدث عنه أحمد بن الحباب الحميري ويعقوب بن سفيان النسوي وعباس الدوري وغيرهم[١٥١] .

٤ – أبو بكر أحمد التوزي :

وممن حدث في شيراز خطيبها أبو بكر أحمد بن عباس بن مرداس التوزي، روى الحديث عن عمر بن داود التوزي وسمع منه محمد بن عبد العزيز الشيرازي، توفي عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م(١٥٢) .

٥ – القاضي الجوري :

علي بن الحسين أبو الحسن القاضي الجوري، من الأئمة البارزين في علوم الحديث، لقي أبا بكر النيسابوري وحدث عنه وعن جماعة آخرين، وألف كتاب (المرشد) شرح فيه مختصر المزني، كما ألف كتابا آخر اسمه (الموجز)، ذكره السبكي(١٥٣) في الطبقة الثالثة ممن توفي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .

الرحلة العلمية :

جدَّ طلبة العلم وبالذات المحدثون منهم في طلب الحديث والرحلة إلى شيوخ المحدثين أينما كانوا وتحملوا الصعاب والمشاق في سبيل هذا الهدف العلمي السامي، فهذا الإمام أحمد بن حنبل يرحل إلى اليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ومكة والمدينة والشام، لكي يدون الأحاديث عن رواتها، وهذا الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصحيح يرحل إلى خراسان والري والحجاز والعراق ومصر، لطلب الحديث وتدوينه(١٥٤) وغيرهم كثير هم الرحالون في سبيل طلب العلم سيما علم الحديث .

وكما هو الحال في أقاليم الدولة العربية الإسلامية شهد الجانب الشرقي للخليج العربي رحلة الكثير من المحدثين في طلب العلم والحديث، منهم : أبو العباس الفضل بن حماد الخبري(١٥٥)، روى الحديث عن سعيد بن أم مريم وسعيد بن عفير، وروى عنه أبو بكر بن عبدان الشيرازي وأبو بكر بن أبي داود السجستاني وغيرهما، رحل في طلب الحديث وألف المؤلفات وجمع وصنف المسند، توفي عام ٢٦٤هـ: ٨٧٧م(١٥٦) .

ورحل من الجانب الشرقي في طلب العلم أبو عبد الله محمد بن يوسف العتايدي الشيرازي الحافظ من مدينة شيراز، رحل إلى العراق وكتب عن جماعة من العلماء، توفي عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م(١٥٧) .

ومـمن برز من علماء الحديث في مدينة فسا في الجانب الشرقي ورحل إلى المشرق والمغرب أبو يسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي، وهو من أئمة الحديث ألف الكتب في هذا العلم، روى الحديث عن عبد الله بن موسى وغيره من العلماء، وروى عنه أبو محمد عبد الله بن جعفر درستويه النحوي . ذكر الخطيب البغدادي[١٥٨] أنه ألف كتاب (الزوال) رواه عبد الله بن أحمد بن شاذان . وكانت وفاة يعقوب الفسوي عام ٣٧٧ هـ/٩٨٧م[١٥٩] .

ورحل أيضاً في طلب العلم أحمد بن منصور بن ثابت الشيرازي، أحد حفاظ الحديث المشهورين، ذكره الدارقطني وطعن في أحاديثه، وأنكر ذلك يحيى بن مندة، وعده ممن يؤخذ منه علم الحديث . وكانت وفاته عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م[١٦٠] .

ومن الرحالين المكثرين في الرحلة أحمد بن منصور بن محمد بن عباس الشيرازي الحافظ، رحل إلى نيسابور والعراق والشام، ثم انصرف إلى مدينته شيراز حتى ضربت الأمثال به لعلمه في الحديث، توفي عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م[١٦١] .

مما سبق نستنتج أن علوم الحديث أسهمت إسهاماً كبيراً في نشر الثقافة العربية في الجانب الشرقي للخليج العربي، بما فيها أثرها في علوم اللغة العربية سواء في أصول الفقه أو في علوم الأدب العربي بشكل عام[١٦٢] بل أن هذه العلوم أسهمت كثيراً في استقرار العرب في هذا الجانب معلمين لهذا العلم ومحدثين، والذي حتم عليهم واجبهم الديني تعليمه لأبناء هذا الجانب وغيره من الأقاليم الإسلامية المحررة، ممن دخلوا في الإسلام ولابد أن يكون المعلمون الأوائل لهذه العلوم من أصحاب رسول الله (ص) وبعدهم التابعين، وجميع هؤلاء، وأولئك كانوا من العرب الأقحاح في الدرجة الأولى .

من خلال التراجم التي ذكرناها لعلماء الحديث، اتضح لنا بصورة جلية أن الغالبية العظمى من المحدثين هم من العرب، ومن لم يُنَصّ على عروبته صراحة يدل تركيب اسمه على عروبته، وإذا كان البعض القليل منهم غير عربي فلابد أن البيئة التي عاش فيها كانت بيئة عربية صرفة، وإلا لما أطلق عليه وعلى أجداده أسماء العرب لا الحديثة منها بل الراسخة في القدم[١٦٣]، وهذا ما نفخر به أشد الفخر في تاريخنا وتراثنا العربي الزاخر .

٢ – علوم الفقه

الفقه الإسلامي من العلوم التي ابتدأت مع بداية الدعوة الإسلامية في حياة الرسول الكريم والسنة النبوية[١٦٤]، وابتدأ تدوين الفقه في ذلك العصر واستمر في حالة تطور حتى بلغ الذروة في عصر أصحاب المذاهب الأربعة[١٦٥] . ويبدو أن تشعب المعاملات بين أفراد المجتمع الإسلامي وحاجة الدولة إلى القضاة، وازدياد حدة الهجمة الشعوبية على العرب والإسلام، كل ذلك أدى إلى تطور هذا العلم ووصوله إلى مستوىً عالٍ من الرقي .

ومن أهم المصادر التي يعتمد عليها الفقه الإسلامي هي : الكُتاب والسنة والإجماع والقياس[١٦٦]، وتأثر الجانب الشرقي للخليج العربي أسوة بغيره من الأقاليم الإسلامية بالحركات الفكرية العربية، سيما فيما يخص العلوم الفقهية، فقد انتشر مذهب الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد في هذا الجانب، يقول الاصطخري[١٦٧] : "والغالب على أهل فارس في الفتيا مذهب أهل الحديث"[١٦٨] . ويؤكد الفقيه الشيرازي[١٦٩] دور الشافعية الكبير في هذه المنطقة، إذ يقول : "وبفارس خلق كثير من أصحابنا" .

وكان لأصحاب الرأي[١٧٠] دور كبير أيضاً في هذه المنطقة، إذ يقول المقدسي[١٧١] : "والعمل فيه – الجانب الشرقي – على مذهب أصحاب الحديث وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله كثير"، وفضلاً عن ذلك شجع أمراء المنطقة علوم الفقه والفقهاء، وصف المقدسي أيضاً العلوم الفقهية فيها بقوله : "... وللداودية[١٧٢] دروس ومجالس وغلبة ويتقلدون القضاء والأعمال وكان عضد الدولة يعتقده أكثر الفقهاء ..." .

تتضح لنا أهمية الجانب الشرقي للخليج العربي العلمية بصورة كبيرة جداً، ذكر أبو يعلى[١٧٣] أن بلاد فارس كانت إحدى البلدان التي تقع ضمن سلسلة الرحلة العلمية للإمام أحمد بن حنبل، كما ظهر الكثير من الفقهاء في هذا الجانب من أبنائه أو ممن استقر فيه أو تقلد القضاء والأعمال به، كان لهم دور رائد ومتميز في نشر علم الفقه الإسلامي، نذكر منهم :

١ – ابن سريج البغدادي :

أحمد بن عمر بن سريج أبو العباس البغدادي، من أبناء مدينة بغداد، عربي كان له دور مهم في نشر مذهب الإمام الشافعي في هذا الجانب وغيره، لقب بـ : الباز

الأشهب، وهو أحد الأئمة المشهورين في المذهب الشافعي ومن المجتهدين فيه، تولى قضاء مدينة شيراز، وأخذ العلم من أبي القاسم الأنماطي(١٧٤).

ألف ابن سريج في علم الفقه وغيره من العلوم أكثر من أربعمائة كتاب(١٧٥)، وصفه أبو حامد الاسفراييني(١٧٦) بقوله : "نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون الدقائق"، توفي ابن سريج عام ٣٠٦هـ/٩١٨م في بغداد(١٧٧).

٢ – أبو سعيد الاصطخري :

الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل بن يسار بن عبد الحميد بن عبد الله بن هانيء بن قبيصة بن عمرو بن عامر الاصطخري، فقيه عربي ولد في مدينة اصطخر عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م(١٧٨)، روى العلم عن سعدان بن نصر وابن أبي غرزة وحنبل بن إسحاق(١٧٩)، وكان من الفقهاء المبرزين لفقه الإمام الشافعي والمساهمين في نشره، ألف عدة كتب منها : كتاب الأقضية(١٨٠)، وهو كتاب فقهي، ويبدو أنه تقلد عدة مناصب في الدولة العربية بشكل مستمر، إذ تولى قضاء مدينة قم ثم تولى الحسبة في بغداد وأخيراً ولاه الخليفة العباسي المقتدر بالله قضاء إقليم سجستان. توفي ببغداد عام ٣٢٨هـ/٩٣٩م(١٨١).

٣ – ابن المهلب الشيرازي :

أبو الحسين بندار بن الحسين بن المهلب الشيرازي المولد الأرجاني الموطن(١٨٢)، ونرجح أنه من أبناء العرب نسباً، وصفه الأصبهاني(١٨٣) بقوله : "كان يعلم الأصول مهذباً، وفي الحقائق مقرباً، كان له القلب العقول واللسان السئول ...". وهو من الفقهاء الشافعية، توفي عام ٣٥٣هـ/٩٦٤م(١٨٤).

٤ – ابن خفيف الضبي :

أبو عبد الله محمد بن خفيف الضبي الشيرازي(١٨٥)، فقيه على مذهب الشافعي(١٨٦)، أخذ الفقه على ابن سريج، وكان عالماً في علوم الظاهر والحقائق، ألّف الكثير من الكتب، توفي عام ٣٧١هـ/٩٨١م(١٨٧).

٥ – أبو الطيب السيرافي :

حماد بن محمد بن الحسن أبو الطيب القاضي السيرافي، صحب يونس بن حبيب وأخذ العلم من أبي إسحاق الهجيمي وأبي بكر بن شجرة، وروى عنه محمد بن عبد العزيز الشيرازي، توفي عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م[١٨٨] .

٦ – أبو محمد الأنصاري الاصطخري :

عبد الله بن محمد بن سعيد بن محارب بن عمرو بن عامر بن لاحق بن شهاب أبو محمد الأنصاري الاصطخري، فقيه عربي من مدينة اصطخر، سكن بغداد وتفقه على القاضي أبي حامد المرورذي، وكان قاضي مدينة فسا وفقيه فارس[١٨٩] . سمع في كثير من الأقاليم وترك كتب السماعات له في مصر، توفي عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م[١٩٠] .

٧ – أبو بكر الحناط :

أبو نصر بن أبي عبد الله الحسين بن أبي جعفر محمد الطبري، فقيه أصولي ومن الأدباء المعروفين ممن عاش في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، سكن شيراز وأخذ أهلها منه الفقه وكتب الشعر وله الكثير منه[١٩١]، كان والده من فقهاء الشافعية في الجانب الشرقي، ذكره الشيرازي[١٩٢] بقوله : "ومنهم أبو عبد الله الحناط الشيرازي فقيه فارس" . ولا نعلم سنة وفاة هذا الفقيه، ولكن يبدو أنه ممن عاصر قاضي القضاة بفارس بشر بن الحسين أيام عضد الدولة البويهي[١٩٣] .

ورود العلماء العرب

لورود العلماء العرب إلى الجانب الشرقي للخليج العربي أثره في تطور العلوم فيه، منهم : أبو محمد سعد بن الصلت بن أبرد بن أسلم الكوفي ثم الشيرازي الذي تولى قضاء شيراز، وروى الكثير من الأحاديث فيها، توفي عام ١٩٦هـ/٨١١م[١٩٤]، وكذلك بن سريج المترجم له سابقاً وغيره من القضاة .

ومنهم من جاء للاستقرار في هذا الجانب مثل نوح بن منصور بن مرداس أبو مسلم السلمي أحد العلماء العرب الذين رحلوا كثيراً، وسكن شيراز أخيراً وأخذ عنه الحديث

الكثير من العلماء، توفي عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م[١٩٥] . ومنهم من جاء لطلب العلم أو لتعليم طلبة العلم في المنطقة، مثل : أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الأحوازي الذي أخذ عن علماء شيراز، وروي عنه الحديث أيضاً فيها، وكان قد دخل المنطقة قبل عام ٢٩٠هـ/٩٠٢م، وتوفي في الأحواز عام٣٦٠هـ/٩٧٠م[١٩٦]، ومنهم من تجول في البلدان وحدث بها بما فيها هذا الجانب (الشرقي للخليج العربي)، مثل : محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن زكريا أبو بكر الوراق البغدادي الذي كان يلقب بـ : غندرا، وحدث في المجالس العلمية في المنطقة عن المحدثين العراقيين مثل ابن دريد وغيره، توفي عام ٣٧٠هـ/٩٨٠م[١٩٧] . وفي مدينة أرجان حدث المحدث العراقي العربي محمد بن جعفر بن سعيد أبو بكر الجوهري، ممن ورد إلى هذه المدينة[١٩٨] .

وقصد المنطقة عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن صفوان بن عبد الله بن الحكم الأموي، وهو محدث عربي أندلسي مشهور حدّث في مدينة سيراف[١٩٩]، كما قصد المنطقة الفقيه العراقي علي بن محمد، وقد أوضح الشيرازي[٢٠٠] ذلك بقوله : "... فمنهم قاضي القضاة أبو سعيد بشر بن الحسين، وكان إماماً من أصحاب داود، أخذ العلم عن علي بن محمد البغدادي صاحب ابن المغلس، خرج إلى فارس وأخذ عنه أبو سعيد بشر بن الحسين" .

إن هؤلاء العلماء العرب جميعاً من محدثين وفقهاء الذين استقروا في الجانب الشرقي للخليج العربي، ومن كان أصله منه، لعبوا دوراً بارزاً في نشر علمي الحديث والفقه ودعم الحركة العلمية فيه بشكل جاد .

(٤)

المبحث الرابع :

علوم القرآن

قام حكم العرب للجانب الشرقي من الخليج العربي على أساس نشر الدين الإسلامي، وهذا هو الهدف الأسمى والرئيسي لحركات التحرير العربية، فلم يكن العرب في يوم من الأيام محتلين للأرض، بل تجمع المصادر على أنهم محررين للبشر من عبودية المخلوق للمخلوق، وبسبب دخول الفرس وغيرهم من الأعاجم في الدين الجديد، ظهرت العجمة واللحن في قراءة القرآن الكريم، كما أن للعرب أنفسهم لهجات عدة في اللغة تستعجم على البعض منهم، وفضلاً عن ذلك فقد غلب اللحن على العرب بعد استقرارهم في المدن والأمصار واختلاطهم بالأعاجم فيها .

إن هذه الأسباب مجتمعة أظهرت الحاجة لعلوم جديدة لم تكن العرب تعرفها من قبل، أبرزها علم النحو وعلوم القرآن، وكانت الحاجة لهذه العلوم الأخيرة مستمرة وقائمة لكل مسلم لمعرفة تفسير القرآن الكريم وأسباب نزول سوره ومعرفة الأحكام وغيرها من الأمور الأخرى الضرورية للمسلم .وتشمل علوم القرآن : علم القراءات والناسخ والمنسوخ وأسباب التنزيل .

كان للجانب الشرقي دوره في هذه العلوم، إذ أخذ العرب المسلمون على عاتقهم نشرها، فكثرت حلقات القراء في المنطقة فيما بعد إلى الحد الذي وصفها المقدسي[٢٠١] في مدينة واحدة، وهي مدينة شيراز بالكثرة، بقوله : "كثيرة الصوفية ومجالس القرّا، ولهم غدوات الجمع ختمات لها نور وبَهَا ..." .

ظهر الكثير من العلماء في علوم القرآن، منهم من اقتصر على هذا العلم، في حين كانت الغالبية العظمى ممن أخذه مع علوم أخرى كالفقه أو النحو أو الحديث، وأبرز هؤلاء من العرب هم :

١ – عبد الله بن ثابت :

أبو محمد عبد الله بن ثابت بن يعقوب بن قيس بن إبراهيم بن عبد الله العبقسي، من قبيلة عبد القيس[٢٠٢] العربية، ويعرف بـ : التوزي[٢٠٣]، ونسبته هذه أنه في مدينة توج، أول قاعدة محررة للجيش العربي في الساحل الشرقي، وأن قبيلة عبد القيس من القبائل التي استقرت فيها .

روى أبو محمد القراءة عن محمد بن الهيثم ومحمد بن الفضل، وسمع الحروف من حسين بن الأسود، وروى عنه القراءة محمد بن يوسف[٢٠٤] . روى عن أبيه عن الهذيل بن حبيب تفسير مقاتل بن سلمان وروى عن عمر بن شبة النميري وحدث عنه أيضاً ابن السماك وابن أبي روبا وغيرهما[٢٠٥]، وكان مقرئٌ نحوي ويجود قراءة حمزة[٢٠٦]، توفي عام ٣٠٨هـ/٩٢٠م[٢٠٧] .

٢ – الجوري :

أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عمران بن موسى الأديب النسابة الجوري، وهو ممن برع في علوم القرآن، سمع حماد بن مدرك وجعفر بن درستويه وابن دريد وعبد الله بن عامر العامري وغيرهم، توفي عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م[٢٠٨] .

٣ – المطوعي :

الحسن بن سعيد بن جعفر بن الفضل بن شاذان أبو العباس المطوعي العباداني البصري العمري[٢٠٩]، وبهذا يكون من العلماء العرب ممن نسب إلى جزيرة عبادان العربية، وهو عمري ونرجح أنه من ذرية الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، ولد عام ٢٧٠ هـ/٨٨٣م على وجه التقريب، واستقر في اصطخر[٢١٠]، ويعد من العلماء المميزين، وصفه الذهبي[٢١١] بقوله : "... وأسند من في الدنيا في القراءات ..." . رحل في طلب العلم فأكثر من ذلك وقرأ على إدريس الحداد ومحمد الصوري وأحمد بن فرح المفسر وإسحاق الخزاعي[٢١٢]، وأحمد بن الحسين الحريري ومحمد الأنصاري ويوسف الواسطي والأشناني والحسن الدمشقي وغيرهم[٢١٣] .

وقرأ عليه القراءات محمد بن جعفر الخزاعي وعلي الخبازي وأبي بكر النهاوندي ومحمد بن الحسين الكارزيني وغيرهم كثير[٢١٤]، ألف المطوعي كتاباً في القراءات هو : كتاب معرفة اللامات وتفسيرها[٢١٥]، توفي عام ٣٧١هـ/٨٨٤م[٢١٦] .

٤ – الحسن بن أحمد :

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي الفارسي الفسوي، عالم عربي عمل في علوم القرآن، فضلاً عن علوم النحو والحديث، روى القراءة عرضاً عن أبي بكر بن مجاهد، وروى عنه قراءة القرآن عرضا أيضاً عبد الملك بن بكران النهرواني، ألف مؤلفات كثيرة منها في هذا العلم كتابه : الحجة في القراءات، وقد شرح فيه القراءات السبع لابن مجاهد . توفي عام ٣٧٧هـ/٨٩٠م(٢١٧) .

٥ – ابن إسحاق المقرئ :

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسحاق المقرئ البيضاوي – نسبة إلى مدينة البيضاء من مدن كورة اصطخر –، من قراء الجانب الشرقي، سمع من أبي الشيخ الحافظ وأبي بكر الجعابي وعبد الله بن محمد القتات . توفي عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م(٢١٨) .

وبرز من الفرس وغيرهم في علوم القرآن آخرون نذكر منهم :

١ – سيبويه :

عمر بن عثمان بن قمير أبو بشر الملقب : سيبويه، من أبناء مدينة البيضاء في كورة اصطخر، من الموالي روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء والهذلي، روى عنه الجرمي، توفي عام ١٨٠هـ/٧٩٦م(٢١٩) .

٢ – السيرافي :

الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافي النحوي، اشتغل في تدريس القرآن والقراءات وبقية علوم القرآن فضلاً عن العلوم الأخرى(٢٢٠)، قرأ القرآن على ابن مجاهد(٢٢١) . توفي عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م(٢٢٢) .

٣ – المقنعي :

علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله، أبو الحسن الجوهري المقنعي، من أبناء مدينة شيراز، سكن بغداد، قرأ القرآن على أبي خشنام في البصرة وعلى أبي طاهر ابن أبي هاشم في بغداد، وكان يقول : "ما طلع الفجر علي قط إلا وأنا أدرس القرآن"، قرأ عليه الحسين بن علي بن عبد الله المقرئ في بغداد، توفي فيها (بغداد) عام ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م(٢٢٣) .

٤ – السعيدي :

أبو الحسن علي بن جعفر السعيدي، من القراء المشهورين، قرأ على أبي بكر النقاش، وأحمد بن نصر الشذائي، والحسن بن سعيد المطوعي وغيرهم، وقد ألف كتاباً في هذا العلم، ويبدو أنه كان من الشهرة حتى وصف بأنه : "مقرئ أهل فارس"[٢٢٤] .

إن هذا العلم مضاف إلى العلوم الأخرى سابقة الذكر، تؤكد أهمية الجانب الشرقي للخليج العربي من الناحية العلمية، وتؤكد أيضاً دور العرب وأثرهم الفكري والثقافي في إبراز الحركة الفكرية الرائدة في علوم اللغة العربية وعلوم الحديث والفقه الإسلامي وعلوم القرآن، كما أبرزت هذه العلوم دور الثقافة والحضارة العربية في رفع المستوى الفكري والحضاري للشعوب المستقرة في الجانب الشرقي .

الخلاصة

أثبت البحث تأثر الجانب الشرقي للخليج العربي بالحركة الفكرية والسياسية العربية وبشكل خاص ما ظهر منها في مدينة البصرة، فقد تأثر بحركات الخوارج الأزارقة والصفرية وكذلك بفرق المعتزلة وغيرها من الفرق الأخرى، كما ظهرت فيه المذاهب الدينية التي نشأت في العراق مثل الحنفية والشافعية والشيعة، وتأثر أيضاً بالفكر البصري في علوم الحديث والفقه واللغة العربية وعلوم القرآن .

أوضح البحث تأثر الجانب الشرقي للخليج العربي بالحضارة العربية في كل شيء منها، حتى غدت اللغة العربية لغة محكية لدى العامة والخاصة فيه من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، كما درست كل العلوم بهذه اللغة وأصبحت العادات والتقاليد العربية مستخدمة وبشكل طبيعي لدى سكان هذه المنطقة الواسعة الامتداد على الساحل والداخل من فرس وأكراد وغيرهما من القوميات الأخرى، فضلاً عن العرب، بل أن الملابس العربية كانت تُرتدى من قِبَل هؤلاء، مما يدلل على قوة وأصالة التأثير العربي في الجانب الشرقي وعلى كل مستويات الحياة فيه، فكان للثقافة والحضارة العربية وجودها الفاعل في مفردات الحياة اليومية ورفع المستوى الفكري والثقافي لكافة الشعوب المستقرة في الجانب الشرقي للخليج العربي .

أ.د. محمد كريم إبراهيم الشمري
جامعة عدن – الجمهورية اليمنية

هوامش وتعليقات البحث

١ – يراجع بحثنا : "الاستقرار العربي في الجانب الشرقي للخليج العربي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة"، مجلة الوثيقة، العدد (٣٣)، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، السنة السابعة عشرة، رمضان ١٤١٨هـ:يناير ١٩٩٨م، ص٧٤-١١١ .

٢ – ابن خياط . التاريخ ق أ ص١٣٤-١٣٥، البلاذري، فتوح البلدان ص٣٩٣-٣٩٤ .

٣ – الحموي . معجم البلدان مجلد ٢ ص٨٩١ .

٤ – ابن خياط . التاريخ ق ا ص١٤٥ .

٥ – المسالك والممالك ص٧٦-٧٧، انظر أيضاً : الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٣٤٩، ناجي . دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص٤٠٠-٤٠٢ .

٦ – الاصطخري . المسالك والممالك ص٧٧، المقدسي . أحسن التقاسيم ص٤٢٣، الحميري . الروض المعطار ص٣٥١ .

٧ – أحسن التقاسيم ص٤٣٠، انظر أيضاً : ناجي . دراسات ص٤٠٥ .

٨ – الدينوري . الأخبار الطوال ص٢١٩، الطبري . تاريخ الرسل ج ٥ ص١٣٧، ١٣٨، ١٧٦ . الاصطخري . المسالك والممالك ص٧٣، ابن حوقل . صورة الأرض ص٢٤١-٢٤٢، ابن الأثير . الكامل مجلد ٣ ص٣٨٢ .

٩ – إبراهيم . الاستقرار العربي ص٩٠ .

١٠ – الطبري . تاريخ الرسل ج ٥ ص١٣٨ (وكانت تسمى في عصره : قلعة منصور)، انظر أيضاً : الاصطخري . المسالك والممالك ص٧٧، ابن حوقل . صورة الأرض ص٢٤٧، لسترنج . بلدان الخلافة الشرقية ص٣١٦ .

١١ – سورة يوسف، آية ٢ .

١٢ – المسالك والممالك ص٨٣ .

١٣ – تاريخ العرب (المطول) ج ٢ ص٣٠٨، ويبدو أنه ناقض نفسه، فبينما أورد ما معناه أن اللغة العربية أصبحت اللغة المحكية عند العوام . تاريخ العرب ج ١ ص٢١٤، يعدها لغة العلم والطبقة الراقية . نفسه ج ٢ ص٤٤٢ .

١٤ – أحسن التقاسيم ص٤٣٠ .

١٥ – المصدر نفسه ص ٤٢٩ .

١٦ – العلي . مراكز الحركة الفكرية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (٣١)، ج٣، (بغداد ١٩٨٠م)، ص٥ .

١٧ – الاصطخري . المسالك والممالك ص٨٤، أنظر أيضاً : ابن حوقل . صورة الأرض ص٢٥٥، ويقول المقدسي : "والشيعة بسواحله كثير" . أحسن التقاسيم ص٤٣٩، كذلك انتشرت فرق الخوارج في هذه المنطقة .

وبخصوص المعتزلة يقول الشهرستاني : "... ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً، وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى ..." . الملل والنحل ج١ ص٥٧ .

١٨ – المسالك والممالك ص٨٤، أنظر أيضاً : ابن حوقل . صورة الأرض ص٢٥٥، المقدسي . أحسن التقاسيم ص٤٣٩ .

١٩ – طبقات الفقهاء ص١٣٣ .

٢٠ – كتاب الأقاليم ص٦٥ .

٢١ – الروض المعطار ص١٢٠ .

٢٢ – السمعاني . الأنساب ج٣ ص٢٩٩ .

٢٣ – ناجي معروف . عروبة العلماء ج١ ص٣٨٦ .

٢٤ – السبكي . الطبقات الشافعية ج٣ ص٤٨٧ .

٢٥ – أحمد أمين . ظُهْر الإسلام ج١ ص٢٢٠ .

٢٦ – الثعالبي . يتيمة الدهر ج٢ ص١٩٦، القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص٣٥٨ .

٢٧ – القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٢٧٣ .

٢٨ – أحمد أمين . ظُهْر الإسلام ج١ ص٢٦٥ .

٢٩ – القزويني . آثار البلاد ص٢٩٠ .

٣٠ – ينظر عنه استقرار العرب على الساحل الشرقي للخليج العربي ومدنه الداخلية : إبراهيم . الاستقرار العربي، مجلة الوثيقة، العدد ٣٣، ١٩٩٨، ص٧٤ فما بعد .

٣١ – العلي . مراكز الحركة الفكرية ص٢١ .

٣٢ – الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد، مجلد ١٢ ص١٧، القفطي . أنباه الرواة ج ٢ ص٢٩٧، ابن خلكان . وفيات الأعيان، ج ٣ ص٣٣٦ .

٣٣ – ابن النديم . الفهرست ص٩١، القفطي . أنباه الرواة ج ٣ ص٩٧ .

٣٤ – السمعاني . الأنساب ج ٥ ص٣٤٢، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٣ .

٣٥ – ابن النديم . الفهرست ص٩١ .

٣٦ – المصدر نفسه، الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٩٥، السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٤٣ .

٣٧ – الفهرست ص٩١، انظر أيضاً : الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٩٥، السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٤٣، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٤ .

٣٨ – ليس هناك جزيرة في سواحل الخليج العربي سواء الشرقية أو الغربية بهذا الاسم فيما نعتقد، ولكن هناك سيف (ساحل) آل عمارة، ومن المحتمل وجود جزيرة بهذا الاسم مقابل ذلك السيف لم يذكرها الجغرافيون العرب، انظر عن سيف آل عمارة واستقرار الأزد فيه من آل عمارة وآل الصفار : إبراهيم . الاستقرار العربي، ص٨٠-٨٢ .

٣٩ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٩٥، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٤ .

٤٠ – ابن النديم . الفهرست ص٩١ .

٤١ – السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٤٣، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٤ .

٤٢ – الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٩٠ .

٤٣ – المصدر نفسه ج٦ ص٤٨٤ .

٤٤ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٩٦، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٥ .

٤٥ – الأنساب ج٥ ص٣٤٣ .

٤٦ – ابن النديم . الفهرست ص٩١-٩٢، الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٩ .

٤٧ – الفهرست ص ٩١، أنظر أيضاً : القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص٩٧، الحموي معجم الأدباء ج٦ ص٤٨٣ .

٤٨ – شكل آل عمارة وآل الصفار مجموعتين قبليتين من بني الجلندى من الأزد، الذين هاجروا من عمان إلى الساحل الشرقي للخليج العربي، ولآل عمارة مملكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على سيف البحر بفارس متاخمة لحد كرمان . أنظر : إبراهيم . الاستقرار العربي ص٨٠ .

٤٩ – ابن النديم . الفهرست ص٩١، السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٤٤ .

٥٠ – نسبة إلى مدينة جور في الجانب الشرقي للخليج العربي . السمعاني . الأنساب ج٣ ص٣٩٦ .

٥١ – معجم الأدباء ج٦ ص٢٦٩ .

٥٢ – السمعاني الأنساب ج٣ ص٣٩٨ .

٥٣ – الحموي . معجم البلدان مجلد ٢ ص١٤٨ .

٥٤ – الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص٢٦٩ .

٥٥ – السمعاني . الأنساب ج٣ ص٣٩٩، الحموي . المشترك ص١١٣ .

٥٦ – الزبيدي . طبقات النحويين ص١٣٠، القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٢٧٣، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٨٠، الحميري . الروض المعطار ص٤٤٢ .

٥٧ – أنباه الرواة ج١ ص٢٧٤، والسدوسي نسبة إلى سدوس من قبائل العرب وهي عدة بطون في قبائل دارم وشيبان وطي وغيرها، القلقشندي . نهاية الأرب ص٢٨٣ .

٥٨ – أنباه الرواة ج٣ ص٤٠ .

٥٩ – إبراهيم . الاستقرار العربي ص٨٥-٨٦ .

٦٠ الزبيدي . طبقات النحويين ص١٣٠ ، ابن الجوزي . المنتظم مجلد ٧ ص١٣٨ ، الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٨٩٢ .

٦١ – القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٢٧٣ .

٦٢ – المصدر نفسه ص٢٧٣ ، أنظر أيضاً : ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٨٠ ، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٨٨ .

٦٣ – ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٨٠ .

٦٤ – القفطي . انباه الرواة ج١ ص٢٧٣ .

٦٥ – ابن النديم . الفهرست ص٩٥ .

٦٦ – ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٨١ ، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٨٩ .

٦٧ – صورة الأرض ص٢٣٨ ، انظر أيضاً : ابن الجوزي . المنتظم مجلد ٧ ص١٣٨ .

٦٨ – ابن الجوزي . المنتظم مجلد ٧ ص١٣٨ ، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٨٢ .

٦٩ – السمعاني . الأنساب ج٩ ص٤١٣ .

٧٠ – الثعالبي . يتيمة الدهر ج٣ ص٤١٩ ، السمعاني . الأنساب ج٩ ص٤١٣ ، الحموي . معجم الأدباء ج٧ ص٢٤٠ ، القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص٣٥٨ .

٧١ – يتيمة الدهر ج٣ ص٤١٩ .

٧٢ – القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص٣٥٨ .

٧٣ – السمعاني . الأنساب ج٩ ص٤١٣ .

٧٤ – الحموي . معجم الأدباء ج٧ ص٢٤٠ .

٧٥ – الثعالبي . يتيمة الدهر ج٣ ص٤١٩ .

٧٦ – السمعاني . الأنساب ج٩ ص٤١٣ ، القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص٣٥٨ .

٧٧ – المصدر نفسه ص٤١٤ ، الحموي . معجم الأدباء ج٧ ص٢٤٠ .

٧٨ – الرَبَعي : نسبة إلى قبيلة ربيعة العربية ، يقول ابن خلكان : "والرَبَعي بفتح الراء والباء الموحدة وبعدهما عين مهملة ، هذه النسبة إلى ربيعة ، ولا أعلم أهو ربيعة بن نزار أم غيره ، فقد جاءت هذه النسبة إلى جماعة اسم كل واحد منهم ربيعة ..." . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ ، انظر أيضاً : القلقشندي . نهاية الإرب ص٢٥٨ فما بعدها .

٧٩ – القفطي . أنباه الرواة ج٢ ص٢٧٩ ، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ .

٨٠ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٧ ، القفطي أنباه الرواة ج٢ ص٢٩٧ ، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ .

٨١ — الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٧، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ .
٨٢ — ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ .
٨٣ — القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٢٧٣ .
٨٤ — الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٨، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٣٣٦ .
٨٥ — نسبة إلى مدينة (تَوَّج) في الساحل الشرقي للخليج العربي، يقول القفطي : وهو [أبي محمد التوزي] منسوب إلى موضع في بلاد فارس اسمه توز وهم يسمونه اليوم توَّج ..." . أنباه الرواة ج٢ ص١٢٦ .
٨٦ — القفطي . أنباه الرواة ج٢ ص١٢٦ .
٨٧ — الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص١٥٣، القفطي . أنباه الرواة ج٣ ص١٠ .
٨٨ — الحموي . معجم الأدباء ج٦ ص١٥٣ .
٨٩ — المصدر نفسه ج٧ ص٣٠٧ .
٩٠ — الزبيدي . طبقات النحويين ص٦٦، الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٩٥، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٤٦٣ .
٩١ — الزبيدي . طبقات النحويين ص٦٦، الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٩٥ .
٩٢ — المصدر نفسه، الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٩٦ .
٩٣ — غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٦٠٢ .
٩٤ — الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص١٩٥ .
٩٥ — الزبيدي . طبقات النحويين ص٧٤، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٤٦٤ .
٩٦ — الاصطخري . المسالك والممالك ص٨٨، المصدر نفسه ص٤٦٤ .
٩٧ — الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٩، القفطي . أنباه الرواة ج٢ ص١١٤ .
٩٨ — الزبيدي . طبقات النحويين ص١٢٧، المصدر نفسه ج٢ ص١١٣، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٤٤ .
٩٩ — الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٨، القفطي . أنباه الرواة ج٢ ص١١٣ .
١٠٠ — الزبيدي . طبقات النحويين ص١٢٧، الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٨ . وأضاف ابن خلكان عدة مؤلفات له، منها : كتاب الهمزة، وشرح الفصيح والرد على المفضل الضبي في الرد على الخليل، ومن كتبه : كتاب الهداية المقصور والممدود، غريب الحديث، معاني الشعر، أخبار النحويين، الرد على الفراء وكتاب الأعداد وغيرها من الكتب الأخرى التي تبحث في علوم شتى منها في علوم الحديث والتاريخ . أنظر : وفيات الأعيان ج٣ ص٤٥ .
١٠١ — تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٩ .
١٠٢ — المصدر نفسه، القفطي . أنباه الرواة ج٢ ص١١٤، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٤٤ .

١٠٣ – ابن النديم . الفهرست ص٩٣، السمعاني . الأنساب ج٧ ص٣٣٨، القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٣١٤، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٩ .

١٠٤ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٧ ص٣٤١ .

١٠٥ – ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٨، أنظر أيضاً : الذهبي . العبر ج٢ ص٣٤٧، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٦٥ .

١٠٦ – تاريخ بغداد مجلد ٧ ص٣٤١، أنظر أيضاً : ابن خلكان وفيات الأعيان ج٢ ص٧٨ .

١٠٧ – ابن النديم . الفهرست ص٩٣، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٨ .

١٠٨ – القفطي . أنباه الرواة ج١ ص٣١٤ .

١٠٩ – القزويني . آثار البلاد ص٢٠٤ .

١١٠ – ابن النديم الفهرست ص٩٣، السمعاني . الأنساب ج٧ ص٣٣٩–٣٤٠، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٩ .

١١١ – الزبيدي . طبقات النحويين ص١٣٠، الذهبي . العبر ج٢ ص٣٤٧، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٦٥ .

١١٢ – الذهبي . العبر، ج٢ ص٣٤٧، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٦٥ .

١١٣ – ابن النديم . الفهرست ص٩٣، السمعاني . الأنساب ج٧ ص٣٤٠ .

١١٤ – د. صبحي الصالح . علوم الحديث ص٢١ فما بعد .

١١٥ – سمي بالساحلي لتوليه قضاء سيراف الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي، السمعاني . الأنساب ج٧ ص١١–١٢ .

١١٦ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٣١٠، السمعاني . الأنساب ج٧ ص١١–١٢ .

١١٧ – نسبة إلى بني عجل، وهم بطن من بكر بن وائل من القبائل العربية العدنانية . القلقشندي . نهاية الأرب ص٣٥٠ .

١١٨ – السمعاني . الأنساب ج٨ ص٢١٩، أنظر أيضاً : الذهبي . معرفة القراء الكبار ج١ ص١٣٧، ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٤٢٣ .

١١٩ – الذهبي . معرفة القراء الكبار ج١ ص١٣٧ .

١٢٠ _ نسبة إلى بني جشم، وهم بطن من الخزرج من القبائل القحطانية . القلقشندي . نهاية الأرب ص٢١٣ . والجوري نسبة إلى مدينة جور . راجع هامش رقم (٥٠) .

١٢١ – السمعاني . الأنساب ج٣ ص٣٩٦، الحموي معجم البلدان مجلد ٢ ص ١٤٨ .

١٢٢ – المصدر نفسه ج٨ ص ٢١٩ .

١٢٣ – المصدر نفسه ج٣ ص٣٩٦، الحموي . معجم البلدان مجلد ٢ ص ١٤٨ .

١٢٤ – نسبة إلى قبيلة كندة العربية، وهي من قبائل كهلان، وكندة أبوهم ويدعى ثور وبلاد كندة في اليمن . القلقشندي . نهاية الأرب ص٤٠٩ .

١٢٥ – السمعاني . الأنساب ج٧ ص٩٥ .

١٢٦ – ابن العماد . شذرات الذهب ج٢ ص١٥٢ .
١٢٧ – السمعاني . الأنساب ج١ ص٢٨٧ .
١٢٨ – نسبة إلى قرية تدعى زيادآباد من قرى شيراز . السمعاني . الأنساب ج٦ ص٣٥٩ .
١٢٩ – السمعاني . الأنساب ج٦ ص١٩٤ و ٣٥٩ .
١٣٠ – المصدر نفسه ج٧ ص٩٤ .
١٣١ – المصدر نفسه ج٧ ص١٨٦، الحموي . معجم البلدان مجلد ١ ص٢٠٤ .
١٣٢ – فسنجان أو فستجان : من نواحي شيراز . الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص ٨٣٩ .
١٣٣ – الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٩٠١ .
١٣٤ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٣ ص٨٣ .
١٣٥ – الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٨٩٣ .
١٣٦ – الضبي : نسبة إلى بني ضبة، وهم بطن من طابخة من قبائل العرب العدنانية . القلقشندي . نهاية الأرب ص٣١٨ .
١٣٧ – السلمي . طبقات الصوفية ص٤٦٢، السبكي . طبقات الشافعية ج٣ ص١٥٨، الإسنوي . طبقات الشافعية ج١ ص٤٧٦ .
١٣٨ – الأصبهاني . حلية الأولياء مجلد ١٠ ص٣٨٥، الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٣٥٠ .
١٣٩ – السمعاني . الأنساب ج٨ ص٢٢١ .
١٤٠ – العبر ج٢ ص٣٦٠ .
١٤١ – المصدر نفسه ص٣٦١، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٧٧ .
١٤٢ – طبقات الصوفية س٤٦٢، أنظر أيضاً : الذهبي . ج٢ ص٣٦١ .
١٤٣ – الأصبهاني . حلية الأولياء مجلد ١٠ ص٣٨٥، السمعاني . الأنساب ج٨ ص٢٢١ .
١٤٤ – أنظر بحثنا : الاستقرار العربي ص٩٣ .
١٤٥ – السمعاني . الأنساب ج٥ ص٨٤ .
١٤٦ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد٢ ص٢٣٦ .
١٤٧ – السمعاني . الأنساب ج٥ ص٨٤–٨٥ .
١٤٨ – الخطيب تاريخ بغداد مجلد٧ ص١٠٥–١٠٧، السمعاني . الأنساب ج٤ ص٢٣٣ .
١٤٩ – المصدر نفسه مجلد ٢ ص١٠٨، المصدر نفسه ج٤ ص٢٣٣–٢٣٤ .
١٥٠ – ترجمنا له في المبحث الثاني ضمن أعلام الفرس في النحو، ترجمة رقم (٢) .
١٥١ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٨ .
١٥٢ – السمعاني . الأنساب ج٣ ص١٠٨ .
١٥٣ – طبقات الشافعية ج٣ ص٤٥٧ .
١٥٤ – د. صبحي الصالح . علوم الحديث ص٣٩٥–٣٩٦، ٣٩٨ .
١٥٥ – الخبري : نسبة إلى قرية خبر من نواحي شيراز . السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٨ .

١٥٦ — السمعاني . الأنساب ج٥ ص٣٩ .
١٥٧ — المصدر نفسه ج٩ ص٢٢٦ .
١٥٨ — تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٣٩٢ .
١٥٩ — الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٨٩٢ .
١٦٠ — ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٩٦ .
١٦١ — الحموي . معجم البلدان مجلد ٣ ص٣٥٠ .
١٦٢ — د. صبحي الصالح . علوم الحديث ص٣١٧ فما بعد .
١٦٣ — د. ناجي معروف . عروبة العلماء ج٢ ص٦٥ .
١٦٤ — د. محمد يوسف موسى . الفقه الإسلامي، قسم ١ ص١٩ .
١٦٥ — السمرقندي . تحفة الفقهاء ج١ ص١٩ .
١٦٦ — موسى . الفقه الإسلامي ق١ ص١٧٥ .
١٦٧ — المسالك والممالك ص٨٤، أنظر أيضاً : ابن حوقل . صورة الأرض ص٢٥٥، المقدسي . أحسن التقاسيم ص٤٣٩، ويقول : "والشيعة بسواحله كثير" . راجع هامش رقم (١٧) .
١٦٨ — أهل الحديث هم من أنكروا الرأي والقياس، وقالوا علينا أن نتبع ما روي لنا عن الرسول (ص) ولا يجوز لنا أن نقيس بآرائنا . د.عبد الله سلوم السامرائي . الغلو والفرق الغالية ص٢٦٧ .
١٦٩ — طبقات الفقهاء ص١٣٣ . راجع هامش رقم (١٩) من هذا البحث .
١٧٠ — أصحاب الرأي هم الذين أجازوا الرأي والقياس في الفقه . السامرائي . الغلو والفرق الغالية ص٢٦٨ .
١٧١ — أحسن التقاسيم ص٤٣٩ .
١٧٢ — الداودية : مذهب فقهي نسب إلى أبي سليمان داود بن علي الأصفهاني الظاهري المتوفى عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م، وأساس مذهبه العمل بظاهر القرآن والسنة النبوية مادام لم يقم دليل على إرادة غير الظاهر . موسى . الفقه الإسلامي ق١ ص١٧٢-١٧٣ .
١٧٣ — طبقات الحنابلة ج١ ص٤٧، أنظر أيضاً : د. ناجي معروف . عروبة العلماء ج١ ص٣٨٦ . راجع هامش رقم (٢٣) من هذا البحث .
١٧٤ — الشيرازي . طبقات الفقهاء ص ١٠٨-١٠٩، القزويني . آثار البلاد ص٢١١، الإسنوي . طبقات الشافعية ج٢ ص٢١ .
١٧٥ — الشيرازي . طبقات الفقهاء ص١٠٩، القزويني . آثار البلاد ص٢١١، السبكي . طبقات الشافعية ج٣ ص٢٣، الإسنوي . طبقات الشافعية ج٢ ص٢١، ابن العماد . شذرات الذهب ج٢ ص٢٤٧ .
١٧٦ — الشيرازي طبقات الفقهاء ص١٠٩ .
١٧٧ — المصدر نفسه، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٣ ص٢٣ .

١٧٨ – السمعاني . الأنساب ج١ ص٢٨٦–٢٨٧، الحموي . معجم البلدان مجلد ١ ص٣٠٠ .
١٧٩ – المصدر نفسه ص٢٨٦، الذهبي . العبر ج٢ ص٢١٢ .
١٨٠ – ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٢، الذهبي . العبر ج٢ ص٢١٢ .
١٨١ – المصدر نفسه ج٢ ص٧٤–٧٥ .
١٨٢ – السلمي . طبقات الصوفية ص٤٦٧، الأصبهاني . حلية الأولياء مجلد ١٠ ص٣٨٤، السبكي . طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢٤، والأرجاني نسبة إلى أرجان مدينة في شمال غرب الجانب الشرقي للخليج العربي .
١٨٣ – حلية الأولياء مجلد ١٠ ص٣٨٤ .
١٨٤ – المصدر نفسه، السبكي . طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢٥ .
١٨٥ – السبكي . طبقات الشافعية ج٣ ص٣٥٨، الأسنوي . طبقات الشافعية ج١ ص٤٧٦ .
١٨٦ – الذهبي . العبر ج٢ ص٣٦٠ .
١٨٧ – الأسنوي . طبقات الشافعية ج١ ص٤٧٦ .
١٨٨ – السلمي . طبقات الصوفية ص٤٦٧، السمعاني . الأنساب ج٧ ص٣٣٨–٣٣٩ .
١٨٩ – الشيرازي . طبقات الفقهاء ص١١٩، الأسنوي . طبقات الشافعية ج١ ص٥٧ .
١٩٠ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٠ ص١٣٤، السمعاني . الأنساب ج١ ص٢٨٧–٢٨٨ .
١٩١ – القزويني . آثار البلاد ص٢١٢، الأسنوي . طبقات الشافعية ج١ ص٤٠٢–٤٠٣ .
١٩٢ – طبقات الفقهاء ص١١٧ .
١٩٣ – القزويني . آثار البلاد ص٢١٢، وأبو سعد بشر بن الحسين عربي سكن بلاد فارس، ولاه عضد الدولة البويهي القضاء ببغداد عام ٣٦٩هـ/٩٧٩م، ثم قلده قضاء القضاة وهو شيخ كبير مقيم بفارس . راجع بحثنا : الاستقرار العربي ص٩٦ .
١٩٤ – السمعاني . الأنساب ج٦ ص٤٧ .
١٩٥ – الأصبهاني . ذكر أخبار أصبهان مجلد٢ ٣٣٢–٣٣٣، السبكي . طبقات الشافعية ج٢ ص ٣٤٦ .
١٩٦ – السمعاني . الأنساب ج٦ ص٤٧ .
١٩٧ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٥٢، ابن الجوزي . المنتظم مجلد ٧ ص١٠٧، أنظر عنه ترجمته : الأصبهاني . ذكر أخبار أصبهان مجلد ٢ ص١٠٧، أنظر عنه ترجمته : الأصبهاني ذكر أخبار أصبهان مجلد ٢ ص٢٩٦ .
١٩٨ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٢ ص١٤٥ .
١٩٩ – ابن حزم . جمهرة أنساب العرب ج١ ص١١٠ .
٢٠٠ – طبقات الفقهاء ص١٧٧–١٧٨ .
٢٠١ – أحسن التقاسيم ص٤٣٠ .

٢٠٢ – عبد القيس : بطن من أسد من ربيعة، من القبائل العدنانية . القلقشندي . نهاية الأرب ص ٣٣٨ .

٢٠٣ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٦ .

٢٠٤ – ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٤١٢ .

٢٠٥ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٩ ص٤٢٦ .

٢٠٦ – ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٤١٢ .

٢٠٧ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد٩ ص٤٢٧ .

٢٠٨ – الحموي . معجم البلدان مجلد ٢ ص١٤٨ .

٢٠٩ – ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٢١٣ .

٢١٠ . الذهبي . معرفة القراء ج١ ص٢٥٦ .

٢١١ – العبر ج٢ ص ٣٥٩، أنظر أيضاً : ابن الجزري . معرفة القراء ج١ ص٢٥٦، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٥٧ .

٢١٢ – الذهبي . معرفة القراء ج١ ص٢٥٦ .

٢١٣ – ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٢١٣ .

٢١٤ – الذهبي . معرفة القراء ج١ ص٢٥٦، ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٢١٤–٢١٥ .

٢١٥ – ابن الجزري غاية النهاية ج١ ص٢١٣ .

٢١٦ – الذهبي . العبر ج٢ ص٣٥٩ .

٢١٧ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد٧ ص٢٧٦، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص ٨١–٨٢، ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٢٠٦–٢٠٧ .

٢١٨ – الحموي . معجم البلدان مجلد ١ ص٧٩٢، أنظر عن ترجمته : الأصبهاني . ذكر أخبار أصبهان مجلد١ ص٣٠٩ .

٢١٩ – ابن الجزري . غاية النهاية ج١ ص٦٠٢ .

٢٢٠ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ٧ ص٣٤١، السمعاني . الأنساب ج٧ ص٣٣٩، ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٨ .

٢٢١ – المصدر الأخير نفسه، الذهبي . العبر ج٢ ص٣٤٧، ابن العماد . شذرات الذهب ج٣ ص٦٥ .

٢٢٢ – ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٢ ص٧٩، المصدر الأخير نفسه .

٢٢٣ – الخطيب . تاريخ بغداد مجلد ١٢ ص ٩٥ .

٢٢٤ – الذهبي . معرفة القراء ج١ ص٢٩٧–٢٩٨، والنص الأخير منقول عن ص٢٩٧ .

المصادر والمراجع

[أ] المصادر القديمة :

× – ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، (ت : ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

١ – الكامل في التاريخ، مجلد ٣، دار صادر – دار بيروت، ١٩٦٥م .

× – الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم، (ت : ٧٧٢هـ/١٢٣٢م) .

٢ – طبقات الشافعية، ج١-٢، تحقيق : عبد الله الجبوري، الطبعة الأولى، مطبعة الإرشاد، (بغداد، ١٩٧١م) .

× – الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، (ت : ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) .

٣ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مجلد ١٠، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٩٦٧م) .

٤ – ذكر أخبار أصبهان، مجلد ١-٢، انتشارات جهان طهران، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٣٤م) .

× – الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، (ت : ٣٤١هـ/٩٥٢م) .

٥ – كتاب الأقاليم، منشورات مكتبة المثنى، (بغداد، د.ت) .

٦ – المسالك والممالك، تحقيق : د. محمد جابر عبد العال الحيني، (القاهرة ١٩٦١م) .

× – البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، (ت : ٢٧٩هـ/٨٩٢م) .

٧ – فتوح البلدان، الطبعة الأولى، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٣١٩هـ/١٩٠١م) .

× – الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت : ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) .

٨ – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج٢-٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة الصاوي، (القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م) .

× – ابن الجزري، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد، (ت : ٨٣٣هـ/١٤٢٩م) .

٩ – غاية النهاية في طبقات القراء، ج١، باعتناء ج. براجستراسر، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م) .

× – ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت : ٥٩٧هـ/١٢٩٩م) .

١٠ – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مجلد ٧، الطبعة الأولى، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر أباد الدكن، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) .

× – ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، (ت : ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) .

١١ – جمهرة أنساب العرب، ج١ . تحقيق : عبد السلام محمد هارون، منشورات دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٢م) .

× – الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

١٢ – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بـ : معجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ٧ج، اعتنى بنسخه وتصحيحه : د.س. مرجليوث، الطبعة الثانية، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة، ١٩٢٤–١٩٢٧م) .

١٣ – المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، منشورات مكتبة المثنى، (بغداد، ١٩٤٦م) .

١٤ – معجم البلدان، ٦مجلدات، منشورات مكتبة الأسدي، (طهران، ١٩٦٥م) .

× – الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، (من علماء القرن الثامن الهجري) .

١٥ – الروض المعطار في خبر الأقطـــار، تحقيق : د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٩٨٤م) .

× – ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، (ت : ٣٦٧هـ/٩٧٧م) .

١٦ – صورة الأرض، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت،د.ت) .

× – الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) .

١٧ – تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٢ مجلد، دار الكتاب، (بيروت، د.ت) .

× – ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمدبن أبي بكر، (ت : ٦٨١هـ/٢٨٢م) .

١٨ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢–٣، تحقيق : د. إحسان عباس، منشورات دار الثقافة، (بيروت، ١٩٦٩م) .

× – ابن خياط، أبو عمرو خليفة، (ت : ٢٤٠هـ/٨٥٤م) .

١٩ – التاريخ، قسم ١، تحقيق : سهيل زكار، (دمشق، ١٩٦٦م) .

× – الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت : ٢٨٢هـ/٨٩٥م) .

٢٠ – الأخبار الطوال، تحقيق : عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، ١٩٦٠م) .

× – الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت : ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .

٢١ – العبر في خبر من غبر، ج٢، تحقيق : فؤاد سيد، مطبعة الحكومة، (الكويت، ١٩٦١م) .

٢٢ – معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ج١-٢، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة، (القاهرة، د.ت) .

× – الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت : ٣٧٩هـ/٩٨٩م) .

٢٣ – طبقات النحويين واللغويين، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٥٤م) .

× – السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، (ت : ٧٧١هـ/١٣٦٩م) .

٢٤ – طبقات الشافعية الكبرى، ٤ج، تحقيق محمود محمد الطناحي وزميله، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٦٥م) .

× – السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، (ت : ٤١٢هـ/١٠٢١م) .

٢٥ – طبقات الصوفية، تحقيق : نور الدين شريبة، مطبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) .

× – السمرقندي، علاء الدين محمد بن أحمد، (كان حياً في القرن السادس الهجري) .

٢٦ – تحفة الفقهاء، ج١، تحقيق : محمد المنتصر الكتاني وزميله، منشورات دار الفكر، (دمشق، د.ت) .

× – السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت : ٥٦٢هـ/١١٦٦م) .

٢٧ – الأنساب، ج١-٩، باعتناء : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الطبعة الأولى، (حيدرأباد الدكن، ١٩٦٢م) .

× – الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت : ٥٤٨هـ/١١٥٣م) .

٢٨ – الملل والنحل، ج١، مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٤٨م) .

× – الشيرازي، أبو إسحاق الشافعي، (ت : ٤٧٦هـ/١٠٨٣م) .

٢٩ – طبقات الفقهاء، تحقيق وتقديم : د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، (بيروت، ١٩٧٠م) .

× – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت : ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

٣٠ تاريخ الرسل والملوك، ج٥، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٥م) .

× – ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت : ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) .

٣١ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١-٣، منشورات مكتبة القدس، (القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) .

× القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) .
٣٢ – آثار البلاد وأخبار العباد، منشورات دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م .
× – القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف، (ت : ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .
٣٣ – أنباه الرواة على أنباه النحاة، ج١-٣، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٥٢م) .
× – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
٣٤ – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق : إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٥٩م) .
× – المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت : ٣٧٥هـ/٩٨٥م) .
٣٥ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء : دي غويه، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، (ليدن، ١٩٠٩م) .
× – ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، (ت : ٣٧٨هـ/٩٨٨م) .
٣٦ – الفهرست، المطبعة الرحمانية، (القاهرة، ١٣٤٨هـ) .
× – أبو يعلى، أبو الحسين محمد بن أبى يعلى، (كان حياً في القرن السادس الهجري) .
٣٧ – طبقات الحنابلة، تصحيح : محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة، ١٩٥٢) .

[ب] المراجع الحديثة :

× – أمين، أحمد .
٣٨ – ظهر الإسلام، ج١، دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة، (بيروت، ١٩٦٩م) .
× – حتى، فيليب وآخرون .
٣٩ – تاريخ العرب (المطول)، ج١-٢، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، (بيروت، ١٩٥٠م) .
× – السامرائي، د. عبد الله سلوم .
٤٠ – الغلو والفرق الغالية في الحضـــارة الإسلامية، دار واسط للنشر، الطبعة الثانية، (بغداد، ١٩٨٢م) .
× – الصالح، د. صبحي .
٤١ – عـــلوم الحديث ومصطلحه، دار العـــلم للملايين، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٩٦٥م) .

× – لسترنج، كي .
٤٢ – بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرانسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، (بغداد، ١٩٥٤م) .
× – معروف، د. ناجي .
٤٣ – عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية، ج١-٢، مطبعة الشعب، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٧٦م) .
× – موسى، د. محمد يوسف .
٤٤ – الفقه الإسلامي، قسم ١ مطابع دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٩٥٨م) .
× – ناجي، د. عبد الجبار .
٤٥ – دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، مطبعة جامعة البصرة، (البصرة، ١٩٨٦م) .

[ج] الدوريات :

× – د. محمد كريم .
٤٦ – الاستقرار العربي في الجانب الشرقي للخليج العربي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، مجلة الوثيقة، العدد (٣٣)، السنة السابعة عشرة، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، رمضان ١٤١٨هـ/يناير ١٩٩٨م .
× – العلي، د. صالح أحمد .
٤٧ – مراكز الحركة الفكرية في صـدر الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٣١، ج٣، (بغداد، ١٩٨٠م) .

شبه الجزيرة العربية في الخرائط المحفوظة بالأكاديمية

تشتمل خرائط شرق الجزيرة العربية المطبوعة والموجودة في المكتبة العلمية للأكاديمية الروسية على ٣٠٠ وحدة بما فيها الخرائط الحديثة والقديمة والأطالس . ومجموعة الخرائط والتصاميم والأطالس لشبه الجزيرة العربية مشوقة للغاية رغم أنها مجموعة متواضعة . والكتابات الخرائطية الروسية والأجنبية عن أقاليم شبه الجزيرة العربية والبلدان الواقعة فيها — أي العربية السعودية وعمان والإمارات العربية المتحدة والكويت وقطر والبحرين تم إعدادها في الفترة من وسط القرن السادس عشر إلى العصر الحديث . ونقدم في هذا التقرير ملاحظاتنا حول هذه المجموعة .

تعود الكتابات الخرائطية المبكرة عن شرق الجزيرة العربية إلى فترة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، حيث طبعت في كل من إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وإنجلترا

وهي البلدان التي بلغت الصناعة الخرائطية فيها نمواً نشطاً في ذلك الوقت .

وقد تطورت المفاهيم الجغرافية والخرائطية عن شبه الجزيرة العربية في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . وفي هذه الفترة تميزت عملية رسم الخرائط لشبه الجزيرة العربية بالدقة والواقعية أكثر من ذي قبل .

بقلم الدكتورة

أو. إيه. كراسنيكوفا

ة الروسية



الوثيقة ١٣١.

وكان القرن التاسع عشر جديراً بالانتباه لازدهار العلوم الطبيعية فيه . وبخصوص شبه الجزيرة العربية لم يكن النشاط مقصوراً على حملات علمية قام بها عدد من العلماء الأوربيين ، بل بدأ المهتمون بالطبوجرافيا العسكرية من بلدان مختلفة بتنفيذ سياستهم الاستعمارية الهادفة إلى الاستيلاء على المناطق الغنية . واختلفت مواضيع الخرائط من حملات مختلفة إلى الخرائط الإدارية السياسية والجغرافية والتاريخية .

وأثناء الحرب العالمية الثانية، وضعت ألمانيا مخططات عديدة وأعدت الخرائط لاحتلال أقاليم شبه الجزيرة العربية . وقد شهد القرن العشرون عدة خرائط عن باطن الأرض والخرائط الجيولوجية والخرائط التكتونية (أي عملية التشوهات التي تغير شكل القشرة الأرضية محدثة القارات) المعمارية والخرائط عن المعادن .

وقبل أن ننظر في هذه الخرائط، نود أن نشير باختصار إلى المعلومات المتوافرة لدى العرب عن ترسيم الخرائط التقليدي كما ورد في الأدب الروسي والأوروبي . وتفيد المصادر الأدبية بأن المظهر الخارجي للخرائط العربية القديمة كان غير عادي . وكان أصلاً عبارة عن أشكال هندسية مكونة من خطوط مستقيمة ومحيطات للدائرة لوصف البحار . وقد أدى عدم الدقة في التمثيل الهندسي لمياه البحر إلى التفاوت في مساحات المياه ومساحات الأرض .

ووضع كل من الإيرانيين والسوريين وغيرهم نقوشاً عربية في الخرائط مما أدى إلى تداول اصطلاح "فن الخرائط العربي" لكنه لا يعبر عن الحقيقة تماماً . واقترح مؤرخ الخرائط العالمية الشهير (إل. باجروف) اسم "فن الخرائط الإسلامي" ليشمل إنتاج الخرائط في فترات مختلفة من الزمن . وقد قسّم الفترة الزمنية إلى ثلاث مراحل :

١ – المرحلة الأولى، وهي أقدم المراحل، حيث تأثر فن الخرائط بكل من بطلميوس والرحالة اليونانيين والنظريات التركيبية .

٢ – المرحلة المتوسطة، حيث سيطر عليها فن الخرائط الإسلامي فحسب .

٣ – المرحلة النورماندية العربية .

غير أن هذه المراحل متداخلة ولا يمكن فصل بعضها عن بعض بوضوح .

ولم تكن أقدم الخرائط إلا خططاً لرحلات خاصة أو خرائط للطرق المعدة لمهمات خاصة مثل الحملات الدبلوماسية للبلدان النائية أو الحملات العسكرية أو التجارية بالطرق البرية أو البحرية .

ويرجع تاريخ أقدم الخرائط الفلكية والجغرافية المعروفة إلى بداية القرن التاسع الميلادي . وكانت الكتابات الجغرافية آنئذ متنوعة ومنها كتب علمية وكتب للمراجعات وكتب مشوقة للقراء بصفة عامة .

وتتكون أقدم الخرائط عن شرق الجزيرة العربية المعدة في أوروبا الغربية، من حوالي ٤٠ وحدة . وتعطينا الفرصة لننظر إلى الأراضي العربية من منظور خرائط الغربيين . ومن رواد مصنفي وناشري الخرائط الدوليين آنئذ وكانوا (جاكومو جاستالدي – حوالي ١٥٠٠ –١٥٦٥م من البندقية) و (أبراهام أورتيلوس، ١٥٢٧–١٥٩٨م من هولندا) و (جان جانسونيوس ١٥٨٨–١٦٦٤م من هولندا) و فريدريك دي ويت ١٦١٠–١٦٩٨م من هولندا) و (جيرالد فالك – حوالي ١٦٥٠–١٧٢٦م من هولندا) و (بيتر شنك – ١٦٤٥– ١٧١٥م) و (بيتر شنك الأصغر – حوالي ١٦٩٨–١٧٧٥م) و (جورج ماتاوس سوتر – ١٦٧٨–١٧٥٧م من النمسا) و هرمن مول، توفي في حوالي ١٧٣٢م، عالم الجغرافيا من أصل هولندي سكن إنجلترا) و (أسرة سانسون – حوالي القرن السابع عشر، من فرنسا) و (جيوم دي لانل – ١٦٧٥–١٧٢٦م من فرنسا) و (ريجو برت بون – ١٧٢٧–١٧٩٤م من فرنسا) والآخرون .

وعلى الرغم من أن الخرائط نشرت في أوقات وبلدان مختلفة، إلا أنه يمكن اكتشاف بعض الميزات المشتركة بينها .

وقد واجه الخرائطيون الأوروبيون مشاكل كثيرة عبر الـ ٥٠٠ عام الأخيرة في إعداد الخرائط للمساحات العربية بدقة وذلك بسبب الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية التي كانت منفصلة عن أقاليم آسيا الواسعة ووجدت فيها صحاري عديدة .

ولأسباب شتى ظلت شبه الجزيرة العربية منطقة مجهولة لمدة طويلة وصعبة المنال . ولم يكن في متناول يد المسافرين إلا معلومات محدودة ومقصورة على المناطق المحلية . وكان معظم الخرائط آنئذ تخيلياً .

وترجع أقدم المعلومات الأوروبية عن شرق الجزيرة العربية إلى ثلاثة مصادر حسب قول المؤرخ (جي آر تيبيتس) الذي نقله خبير الخرائط (إس ماكمين) وهو الذي جمعها .

المصدر الأول هو المقاييس والمشاهدات التي سجلها الملاحون الأوروبيون الذين أبحروا حول سواحل شبه الجزيرة العربية أو معظمها . وشكلت هذه المعلومات الأساس المتين لخرائط بطلميوس . واستخدمت فيما بعد في إعداد الخرائط للقوات البحرية . وكانت تلك الخرائط دقيقة وتضمنت معلومات كان يمكن الاعتماد عليها . غير أن مضمونها الطوبوجرافي لم يتجاوز الحدود الساحلية .

وكان المصدر الثاني، المعلومات التي وفرها السكان المحليون عن المنطقة المتوسطة للإقليم وحصل عليها بطلميوس من التجار اليونانيين الذين اتجروا مع القبائل المحلية . وبالطبع كان لهذه الطريقة بعض السلبيات نتجت عن بعض الأخطاء . كترسيم المدن في غير أماكنها الصحيحة ورسم أنهار من الخيال تصب في البحر الأحمر أو الخليج في الخرائط الأوروبية المبكرة . ولم تكن هذه الأنهار إلا مجار مؤقتة في مواسم الأمطار .

وكان المصدر الثالث هو نتائج الإجراءات الحسابية والقياسات التي قام بها الرحالة الأوروبيون .

إن إحدى أقدم الخرائط لشبه الجزيرة العربية التي أدخلها بطلميوس (١٥٤٠م) في مجموعته المنشورة، ترسم الخط الساحلي صحيحاً غير أن المناطق الداخلية تبدي سلسلة من الجبال وأنهاراً وهمية ويتكرر هذا الخطأ لعدة قرون . وأذكر على سبيل المثال خريطة لآسيا (١٥٤٨م) اكتشف فيها (دي جاستالدي) بحيرة كبيرة في شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى نظام كبير للأنهار . وتتابع تمثيل شبه الجزيرة العربية كأرض مروية حتى أواخر القرن السابع عشر في الخرائط الهولندية .

وبالإمكان أن نصف خرائط شبه الجزيرة العربية بوصف مشوق بصرف النظر عن الهيدروجرافيا خاصة فيما يتعلق بالخرائط المبكرة . ففي الزمن القديم كان شبه الجزيرة العربية مقسماً إلى ثلاث مناطق وفقا للأوضاع الجغرافية السائدة، وهي المنطقة الجبلية والمنطقة الصحراوية والمنطقة الخضراء العامرة الملائمة للسكن والري والزراعة .

وتم تحديد المناطق أحياناً بالخطوط المنقطة – وللعلم فإنه حتى بداية القرن العشرين لم ترسم أي حدود على خرائط الجزيرة العربية. سواء كانت حدوداً إدارية أو

رسمية . غير أن مثل هذه الحدود شوهدت في الخرائط الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر . وفي البداية احتلت المنطقة الجبلية في الخرائط سائر الجزء الشمالي للجزيرة لكنها فيما بعد تقدمت نحو سيناء . وينطبق نفس التعليق على المنطقة الصحراوية . وهي أحياناً تظهر في الجزء الشمالي لشبه الجزيرة العربية وأحياناً تقتصر على جزء صغير في شمالي الشرق . وكثيراً ما ظهرت هذه المناطق دون أي معلومات عنها . ويرجع السبب إلى فقدان المعلومات عن المنطقة الوسطى لشبه الجزيرة . وكان عدم توفر المعلومات الدقيقة السبب وراء عدم تواجد الخرائط المطبوعة عن شبه الجزيرة العربية حتى نهاية القرن السابع عشر ولم تظهر إلا ضمن الخرائط المرسومة لآسيا كلها أو أجزاء كبيرة منها .

ولم يتغير تخطيط شبه الجزيرة العربية لحوالي مائة سنة . وعلى سبيل المثال فإن خرائط آسيا هو المعدة من قِبَل (جي هونديوس) وابنه (اتش هونديوس) من الخرائطيين الهولنديين، المنشورة في نهاية القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر نشرت دون أي تغيير في رسم الحدود لشبه الجزيرة العربية . وتم تقسيم الجزيرة إلى جزئين، المنطقة الصحراوية (في الوسط) والمنطقة الخضراء (في الجنوب) وفيه نفس الرسم للأنهار والبحيرات والمدن دون تغيير غير أن معظم آسيا شهد تغييرات كثيرة بسبب إدخال المعلومات الحديثة فيها .

وجدير بالذكر أن إطار خريطة (جيه هونديوس) في ثلاثة أضلاعه يرسم المناظر للسكان العرب (من المنظور الأوروبي) (شكل ١) . ونرى نفس التقسيم لشبه الجزيرة العربية في خريطة الإمبراطورية العثمانية التي أعدها (جيه جانسونيوس) أي المنطقة الصحراوية في الشمال والمنطقة الخضراء في الوسط دون ترسيم الحدود بينهما . وتظهر على الخريطة الأنهار الكبيرة والبحيرات والقرى الواقعة على الساحل والأسماء الجغرافية والمناطق التاريخية مثل عدن وجبل أيمن وهرمز .(شكل ٢)

أما أروع خريطة لتلك الفترة فهي خريطة أعدها راسم الخرائط (ف دي ويت) . (والخريطة الموجودة في المكتبة مطبوعة في لندن) . وربما استخدم المقياس الكبير للخريطة لتضمين تفاصيل جديدة مشـوقة فيها . فنجد فيها الجزيرة العربية مقسمة إلى أربع مناطق : أي شمالي غرب الجزيرة، وشمال شرق الجزيرة، والجزء الشرقي (بحريم) والجزء الكبير في وسط وجنوب الجزيرة (المنطقة الخضراء) . وتظهر في الخريطة الأسماء

الجغرافية وأسماء المناطق التاريخية . والمهم، ظهرت سلسلة من الجبال لأول مرة موازية للسواحل الغربية والجنوبية في حين ظهرت الجبال في الخرائط القديمة كسلسلة متواصلة في وسط الجزيرة . لكن الأمر الأكثر تشويقاً في هذه الخريطة هو ظهور طريقين يؤديان إلى مكة لأول مرة بشكل خطين أحدهما عبر الساحل الغربي من الشمال والثاني من البصرة عبر وسط الجزيرة (شكل ٣) وهكذا في أواخر القرن السابع عشر كانت عند الأوروبيين فكرة سليمة إلى حد ما عن المنطقة العربية ويرجع السبب في ذلك إلى وصول معلومات جديدة عن طريق الحجاج الذين سافروا عبر الجزيرة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وفي خرائط الجزيرة العربية التي رسمت في القرن الثامن عشر نجد بعض المعلومات الجديدة وهي أكثر دقة . غير أن طباعة الخرائط القديمة لم تتوقف . وعلى سبيل المثال نشر (بي شنك) خريطة جميلة مزخرفة لآسيا مهداة لملك ساكسونيا في ألمانيا (فريدريك أغسطس) وفيها قسمت الجزيرة العربية إلى ثلاث مناطق وفيها أنهار وبحيرات كبيرة . وكان مقياس الخريطة كبيراً ليستوعب تفاصيل جديدة . وفي نفس العام نشر (ن سانسون) خريطة لشبه الجزيرة العربية وفيها قسمت إلى ثلاث مناطق غير أنها تتضمن أنهارا وبحيرات كبيرة .

أما الخريطة الأكثر غرابة فقد نشرت في بداية القرن التاسع عشر لراسم الخرائط الإنجليزي من مواليد هولندا (هرمن مول) وكان أول من رسم الخريطة وأطلق عليها اسماً قصيراً بسيطاً (عرابيا) . ولم يظهر فيها التقسيم التقليدي للجزيرة العربية أي الجبال والصحراء والمنطقة الزراعية ولا توجد أنهار في السواحل الشرقية والغربية وإنما فيها رسم طبيعي للتضاريس في وسط الجزيرة . وكذلك تقسيم الأقاليم بخطوط منقوطة (كالبحرين ومهري وسطى وشهر وحضرموت وخلفات . .الخ . .) . وبالنسبة للأجزاء الأخرى لم يتم رسم حدودها بالخطوط المنقوطة (كالحجاز وتهامة وعمان) (شكل ٤) . ويوجد رسم فريد لشبه الجزيرة العربية في خريطة آسيا للراسم (إتش مول) في "خريطة العالم" . وإضافة إلى المعلومات التقليدية، أي تقسيم الجزيرة العربية إلى العربية الصخرية والعربية الصحراوية والعربية السعيدة، تضمنت الخريطة أسماء المناطق التاريخية والمستوطنات مما جعلها متميزة بالمقارنة إلى الخرائط الأخرى . ويظهر الطريق من البصرة إلى مكة في وسط المنطقة الصحراوية في الوسط بشكل خط يربط الآبار بالإضافة إلى معلومات مفيدة بالقرب

من كل بئر مثل "شاه حفر – بئر لماء عذب" و "آبار ماء عسر" و "عند هذه البئر يخلع حجاج مكة ثيابهم" (شكل ٤) . وظهرت بعض المعلومات الجغرافية أيضاً في الخريطة مثل : "جبل العارض أو الجبال الكبرى" وقد جاء في عنوان الخريطة التفسير التالي : "وفقاً لأحدث وأدق الأرصاد". وحصل (إتش مول) على معلومات حديثة دقيقة من الحجاج وأدخلها في خريطته .

وفي خرائط العالم الفرنسي في الجغرافيا وفن الخرائط (جي دي إيل) التي نشرتها الشركة الهولندية (جي كوفنز أند سي مورتير) نجد بعض الميزات الجديدة فلا توجد فيها أنهار أو بحيرات كبيرة، وتظهر فيها مستوطنات عديدة في السواحل الغربية والجنوبية بانتظام موضحاً درب الحجاج والمسافرين . وتظهر الجبال موازية للساحل الغربي بطريقة المنظور . وتقسيم الجزيرة إلى ثلاث مناطق جاء بدقة أكثر بواسطة الخطوط المنقوطة . وكتبت "المنطقة الجبلية" على شبه جزيرة سيناء وضمت المنطقة الصحراوية كل المنطقة الوسطى (البحرين وعمان ومسقط) ونراها في تلك الخرائط كما نرى اليمن كمثلث صغير في جنوبي غرب الجزيرة . ودون شك كان ذلك نتيجة الحصول على معلومات جديدة عن الأوضاع الجغرافية السائدة في المنطقة . غير أنها تبدي نهراً غريباً في الساحل الشرقي للجزيرة . وحسبما ورد في الرسم، ينشأ النهر من الخليج ويصب فيه مما يجعل جزءاً من منطقة شبه الجزيرة يشبه جزيرة (شكل ٥) . والواضح أنه خطأ مبني على معلومات خاطئة واردة من أوروبا .

وعلى العموم ذكرت معلومات جديدة مع عنوان الخريطة (كما يظهر في خريطة آسيا لراسمها جي دي آنيل) . وكثيراً ما قام المسيحيون بالتبشير في الأماكن البعيدة فضلاً عن الحجاج وكانت لديهم معلومات جديدة . وتضمنت خرائط آسيا وأفريقيا لعالم الجغرافيا ورسم الخرائط من نورمبرج (آي بي هومان) معلومات دقيقة عن أقاليم كل من آسيا وأفريقيا . غير أنها تضمنت أخطاء كثيرة عن شبه الجزيرة العربية حيث ظهرت فيها سلسلة من الجبال في سائر المنطقة الوسطى وأنهار أكثر عدداً مما كان في الخرائط القديمة . (وظهر نهر غريب ناشئ من الخليج ويصب فيه) . وفي إحدى هذه الخرائط احتلت المنطقة الخضراء مساحة شبه الجزيرة كلها كأنها ملائمة للعمران في جميع أجزائها . وكانت المستوطنات منتشرة في كل مكان بصورة منتظمة .

وقدمت خريطة العالم الفرنسي (ريجو برت بون) وهو مهندس هيدروجرافيا في البحرية الفرنسية شبه الجزيرة العربية بدقة أكثر . وظهرت فيها سلسلة من الجبال على السواحل الغربية والجنوبية، وكذلك مستوطنات في جهتي الغرب والشرق . والمنطقة الصحراوية منقولة إلى فلسطين، ومنطقة الصحراء عبر مساحة واسعة في شمالي الشرق . ونرى لأول مرة في الجزء الغربي للجزيرة أنهاراً جافة دون مصبات . مثل وادي عسير ...الخ .

ويمكن القول إنه في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت في الخرائط الأوروبية المنطقة العربية بدقة أكبر رغم أنها اشتملت على بعض المعالم الوهمية . وطبعت خريطة الجزيرة العربية في كثير من الأطالس مما يدل على اهتمام الناس المتزايد بالمنطقة العربية . وتشير مقتنيات المكتبة من الخرائط إلى الملامح الرئيسية لتطوير المفاهيم الأوروبية عن البلدان العربية الشرقية .

إن المفاهيم الخرائطية عن الجزيرة العربية لدى روسيا تقوم على ما وصل إليها من أوروبا . وظهرت لأول مرة في خريطة آسيا نشرها (ف – كبريانوف) في بداية القرن السابع عشر في موسكو . (الجدول المفصل المنشور في المطبعة المدنية في موسكو لفاسيلي كبريانوف على أساس خرائط أمستردام) ، وكان أساسه خريطة هولندية لآسيا مع ذكر الأسماء الجغرافية وأسماء المستوطنات باللغة الروسية . وظهرت الجزيرة العربية فيها مقسمة إلى منطقتين، أي المنطقة الصحراوية والمنطقة الخصبة وفيها أنهار وبحيرات ومستوطنات . واحتلت التضاريس كافة أقاليم شبه الجزيرة العربية . وهذا يعني أنهم اختاروا خريطة قديمة جداً لإصدارها باللغة الروسية . أي "رسم شبه الجزيرة العربية في خريطة آسيا لـ (بيكارت)" . وبيكارت راسم الخرائط الهولندي الذي كان يعمل في روسيا في بداية القرن الثامن عشر . وظهرت مدن كثيرة في الجزيرة العربية، وأنهار تنبع من بحيرات كبيرة . وكانت الجبال منتشرة في كل مكان . ورسمت الحدود بخطوط منقوطة بين الشمال والجنوب . وسمي القسم الجنوبي العربية الخضراء وكانت أسماء المناطق التاريخية أسماء تقريبية صعبة الفهم (مثل حيما وأرمين وعدن رجن وجوبلمان والبنعلي ... الخ . ومن الصعب أن نحدد بالضبط الخريطة التي اعتمد عليها (بيكارت) في رسمه للجزيرة العربية . وربما أدخل البيانات من خياله .

ومن المحتمل أن الرسم الروسي لشبه الجزيرة العربية وتحديد الأسماء الجغرافية والإدارية واجه صعوبة بسبب عدم وجود المطبوعات والخرائط والمفاهيم .

وفي القرن الثامن عشر بدأت تتضح المعلومات الجغرافية عن الجزيرة العربية بدقة أكثر . وبدأ نشرها في أطالس الجغرافيا العالمية المطبوعة في روسيا . (أطلس لاستخدام ومنفعة الشباب وقراء السجلات والكتب التاريخية) .

ونشرت خريطة في سان بطرسبرج في ١٩٧٣م بعنوان "الأطلس الجديد أو مجموعة الخرائط لكافة أنحاء العالم لاستخدام الشباب" وفيها ظهرت شبه الجزيرة العربية في صفحة كاملة بعنوان "خريطة الجزيرة العربية وفيها المناطق الصخرية والصحراوية والزراعية" وفي إعادة طبعها استخدموا أحسن وأحدث النماذج وتطابقت مع خريطة (آر بون) (شكل ٦) .

والكتب التاريخية التي نشرت في روسيا في القرن السابع عشر تضمنت الخرائط بما فيها خرائط الجزيرة العربية . ونشرت خريطة بعنوان "الجزيرة العربية الصخرية والصحراوية في أطلس للمدارس عن التاريخ القديم" وفيها الجزء الشمالي فقط للجزيرة العربية مقسماً إلى الجزء الصخري غربا والجزء الصحراوي شرقا .

وبعد أربعين عاما نشرت خريطة بنفس العنوان وأدخلت في كتاب بعنوان "التاريخ القديم للمصريين والقرطاجنيين والأشوريين والبابليين واليونانيين" ونشره (مستر رولين) من الترجمة الفرنسية لـ (في كيه ترديا كوفسكي) في ١٠ مجلدات مع الخرائط في سان بطرسبرج، في ١٧٤٩-١٧٦٢م . وكان راسم الخرائط هو العالم الجغرافي الفرنسي الشهير (جين بابتيست دانفيل) وهو عضو فخري في أكاديمية العلوم وخبير في التاريخ القديم .

لقد سبق رسم خرائط شبه الجزيرة العربية بمقياس صغير في القرن الثامن عشر قبل مسح الخرائط العلمية والطوبوغرافية . وتعرضت كل من أفريقيا وآسيا في القرن الثامن عشر للحملات الأوروبية العلمية والاستعمارية . وقام الفاتحون المثقفون بمسح الأراضي وتحليل جوف الأرض وإعداد الخرائط .

وترجع الخرائط الجغرافية العامة التي أعدها العلماء الألمان في الطبيعة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومنها خريطة رسمت في "معهد وانمار" لكنها لا ترسم الجزيرة العربية بثلاثة أجزاء بل ترسم لأول مرة حدود البلدان كالحجاز واليمن

وحضرموت وعمان والاحساء وعسير . وفي وسط الجزيرة نرى (رسم الحدود المقصورة بشكل سحابة) (شكل ٧) . كما أن هناك طرق عديدة مرسومة بخطوط منقوطة مع ذكر اتجاهاتها . ولأول مرة نجد شرحاً للرموز المستخدمة للمستوطنات والقلاع والخرابات والعناقيد والطرق ..الخ . وبالحروف اللاتينية كالجبل والبرج والوادي .. الخ . ورسمت الجبال بالتظليل وليس بالرسم المنظوري .

وقدمت مجموعة من الخرائط من مقياس كبير لشبه الجزيرة العربية للقراء الأوروبيين تكملة لكتب العالم الألماني الشهير (كارل ريتر) – "دي أركندي" و "لاند كيبنج" وفي إحداها نرى الجزء الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة . وقد تمكن المقياس الكبير للخريطة من إبراز التفاصيل مثل الأنهار والقرى وحتى الواحات بدقة تامة . وداخل إطار الخريطة ورد ذكر الأسماء الجغرافية والرؤوس والجزر مع الإحداثيات . وفيها ذكر اليمن وحضرموت إضافة إلى الطرق التي اتبعتها ست عشرة حملة إلى هذه المنطقة في أزمان مختلفة . ومن المشوق أن نصادف نقوشاً في الجزء الشرقي لحضرموت تقول "أرض مجهولة في عام ١٨٤٣م" . ونرى خريطة ملحقة وفيها ضواحي مكة .

ورسمت الجزيرة العربية في خريطة من مقتنيات المكتبة وفيها أقاليم البلدان الواقعة في جنوب غربي آسيا والجزيرة العربية وشمالي شرق أفريقيا . ويرجع تاريخها إلى نفس الفترة (شكل ٨) . وراسم الخريطة هو عالم إنجليزي شهير في رسم الخرائط اسمه (جيمس وايلد الأصغر) الملقب بالجغرافي لدى الملكة والأمير ألبرت . وهنا نرى المناطق المألوفة أي الصخرية والصحراوية والزراعية ولكن دون رسم الحدود بينها سواء كانت إدارية أو غيرها . وورد ذكر المستوطنات والجبال ومعلومات مفيدة أخرى . وأذكر على سبيل المثال طريقاً على الساحل الغربي فيه نقش يقول : " طريق القوافل من مكة إلى دمشق" وسلسلة من الجبال موازية للساحل الجنوبي . (مهرا – سهل رملي يمتد عرضاً من الساحل إلى بداية المنطقة الجبلية) . وربما كان الغرض منها مساعدة الملاحين في هذه المنطقة . وتثبته جداول تشير إلى :

١ – الطريق البري إلى الهند – مسافات .

٢ – الخليج العربي واتجاهات وقوة الرياح طوال السنة . وعلى سبيل المثال : من أبريل إلى يوليو الرياح الشمالية الغربية الخفيفة .

٣ – الرحلة نهاراً عن طريق البحر الأحمر ومنه إلى نهر النيل .

٤ – اتجاهات الرياح الموسمية – من شمالي الغرب – من أكتوبر إلى أبريل – من بين شمالي شرق مدغشقر والساحل الغربي لهولندا الجديدة . ونرى كذلك لأول مرة أنهاراً مائلة إلى الجفاف وأنهاراً تجف قبل الوصول إلى الساحل . وكل ذلك يدل على توافر المعلومات الوافية عن الأوضاع الجغرافية السائدة في المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية .

ويعود تاريخ الخرائط الجيولوجية لمناطق شبه الجزيرة العربية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر وله ارتباط مع الأبحاث وعمليات المسح التي قام بها علماء الطوبوغرافيا العسكريون الإنجليز . وهكذا فإن الأطلس الذي نشر في بومباي في عام ١٨٥٧م والمرتبط بالأبحاث الجيولوجية عن غرب الهند والساحل الجنوبي الغربي للجزيرة العربية يتناول البنية الجيولوجية للساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية وغرب الهند .

وقد ظهر رسم الجزيرة العربية في روسيا في القرن التاسع عشر في أطالس المدارس والكتب التاريخية . وعلى سبيل المثال في أطلس باسم "خريطة البلدان الإسلامية والخلافة في ذروة قوتها ومجدها" نشر في منتصف القرن التاسع عشر .ونشر (جي فلاسوف) في تبليسي في عام ١٨٧٥م خريطة باسم "خريطة لأقدم المستوطنات حسب ما ورد في كتابات كل من راولنسون ولينورمان" وتتضمن الخريطة مواقع القبائل القديمة والطرق التجارية وطرق الهجرة وأسماء المناطق التاريخية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت في روسيا بعض الخرائط لشبه الجزيرة العربية أو أجزاء منها ونشرتها شركة خاصة للخرائط في سان بطرسبرج باسم (اليكسي ألين) ومنها خريطة باسم "الخريطة الجديدة لأفريقيا والجزيرة العربية" أعدها البارون (ن – كاولبارس) في عام ١٨٩٣م وهو عضو دائم بالجمعية الجغرافية الروسية . وكذلك نشرت خريطة في سان بطرسبرج في عام ١٩٠٠م تحت عنوان "تركيا الآسيوية والجزيرة العربية وأقاليم آسيا الوسطى" .

وخريطة (كاولبارس) يجدر الاهتمام بها . (شكل ٩) ومقياسها كبير (١: ٦٣٠،٠٠٠) وتغطي ٦ صفحات . وتتضمن تفاصيل كثيرة منها المستوطنات والطرق والارتفاعات

والحدود الإدارية والأنهار (بما فيها الأنهار على وشك الجفاف) والتضاريس والصحاري مع ذكر أسمائها الجغرافية . وكذلك بعض المعلومات الجغرافية مثل السهول المرتفعة والصخور وحتى ساحل القراصنة . وتظهر فيها المقاطعات الخاضعة للبلدان الأوروبية بألوان مختلفة . وأعدت الخريطة على أساس معلومات دقيقة متواجـدة في كتب الجغرافيا . وفيها لأول مرة أسماء الأماكن باللغة الروسية . ونشرت فيما بعد خريطة موجزة باسم "تركيا الآسيوية وإيران والجزيرة العربية وأقاليم آسيا الوسطى الأخرى" وهي أصلاً تشبه خريطة (كاولبارس) لكن دون نفس الكمية من التفاصيل .

وقد شكلت نتائج المسح العسكري الطوبوغرافي المدعم بالمعلومات المستمدة من المصادر الخارجية بما فيها الأعمال الخرائطية أساساً لإعداد الخرائط المفصلة عن شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة في شمال أفريقيا . وعلى سبيل المثال نشرت خريطة في سان بطرسبرج باسم "خريطة طوبوغرافية ملخصة للشرق الأوسط" مكونة من صفحات للسنوات من ١٨٩٧ إلى ١٩١٣م . ومن ثم نشرت خريطة روسية في موسكو في بداية القرن العشرين بعنوان " خريطة تركيا والبلقان وفلسطين والجزيرة العربية" .

وقد ظهر الوضع المعماري في جزء من الجزيرة العربية لأول مرة في خريطة تكتونية (أي عملية التشوهات التي تغير شكل القشرة الأرضية محدثة القارات والجبال) للبلقان وآسيا الصغرى أعدت لأغراض المؤتمر الدولي الجيولوجي الذي عقد في فيينا في عام ١٩٠٣م وليس فيها إلا الجزء الشمالي الغربي للجزيرة العربية . وفي وقت لاحق قام الفرع العسكري للخدمات الجغرافية الفرنسية بنشر مجموعة من الخرائط بين عامي ١٩٣٤ ١٩٣٨م عن أفريقيا وكانت صفحة منها عن شبه الجزيرة العربية . وفيها معلومات عن المستوطنات والطرق والأنهار والسكك الحديدية والحدود الإدارية والأنهار التي على وشك الجفاف بأسمائها ..الخ . ولأول مرة تظهر التضاريس بألوان مختلفة حسب ارتفاعاتها .

وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) وضعت ألمانيا النازية خططاً لاحتلال عدة بلدان . ولتحقيق هذا الغرض أعدت معلومات خرائطية مفصلة عن المناطق الآسيوية . ومن مقتنيات مكتبتنا خرائط طوبوغرافية مفصلة عن مكة والمدينة . وتظهر في الخريطتين في الركن الشمالي إلى اليمين ملاحظة تقول : "طباعة خاصة (١١) – ١٩٤١م

– للاستخدام الرسمي فقط" وفي رسم بياني لمكة والمدينة نرى التفاصيل كالمسجد والشوارع والخرائب والمجاري والينابيع والأحواض والسلالم ومركز الشرطة والثكنات العسكرية والمباني العامة والخاصة والمدارس والمخازن والورش والمساجد والمقدسات الدينية وفيها قلعة ذات ممر سري إلى قصر الشريف . وكذلك فيها قصور للأمير وأقربائه وسوق للخبز والفواكه ومركز لبيع الجمال والخراف والرقيق .

ومن بين الخرائط التي أعدت بعد الحرب العالمية الثانية عن الجزيرة العربية خريطة باسم "أشكال أرض الجزيرة العربية" (شكل ١٠) وتم إعدادها في معهد الأبحاث الجغرافية في جامعة هارفارد ونشرتها كمبردج في عام ١٩٥١م . ونرى في هذه الخريطة المستوطنات والتضاريس والأسماء الجغرافية والمناطق التاريخية والأنهار ..الخ . وفي داخل الخريطة توجد خرائط إضافية تكميلية منها التقاسيم السياسية والمناطق الجيولوجية من الغرب إلى الشرق في شبه الجزيرة . وتتضمن القائمة التفسيرية للمصطلحات المستخدمة في الخريطة، المواقع المجسمة أو البارزة والصخور الجبلية كالتلال الرملية والأشجار وقيعان الأنهار الجافة ومقذوفات البراكين والواحات ..الخ . وأيضاً مصادر المعلومات التي تبنى عليها الخريطة مثل : "تبنى الخريطة أساساً على إسقاط ثلاثي الأبعاد من الصور الملتقطة من الطائرات والرحلات الجوية الاستطلاعية . ورسمت الطرق والأنهار . .الخ حسب أسلوب الخرائط الجوية وتقدمت شركة أرامكو بالخرائط والمشورة لحد كبير . كما تمت مراجعة تقارير الرحالة" . وفيها قاموس صغير عربي إنجليزي توجد فيه كلمات مثل "أبو وبلد والاحساء وسمان وصخر ..الخ" ويجدر بنا أن نشير إلى أنها المرة الأولى التي ينشر فيها قاموس صغير للمصطلحات العربية المترجمة إلى لغات أوروبية (من مقتنيات المكتبة) .

ونشرت خريطة في عام ١٩٥٠م لأقاليم أفريقيا والجزيرة العربية من قِبَل دائرة الخرائط للجمعية الجغرافية الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت تلك الخريطة، خريطة سياسية إدارية على غرار المجلة الوطنية الجغرافية حيث رسمت فيها المستعمرات الأوروبية بألوان مختلفة . وعلى العموم كانت هذه الخريطة مشابهة للخرائط الأخرى تظهر فيها الحدود والتقاسيم الإدارية والمدن والقرى والطرق وسكك الحديد ورسمت التضاريس بالرسم المنظوري .

ونشرت خريطة لشبه الجزيرة العربية في عام ١٩٥٠م في الولايات المتحدة الأمريكية في واشنطون من قِبل دائرة الجيولوجيا والمصادر النفطية . وأصبحت تلك الخريطة أساساً لنشر خريطة جيولوجية مفصلة لشبه الجزيرة العربية نشرت في عام ١٩٦٣م . وجدير بالذكر فإن إعدادها تم تحت إشراف كل من دائرة المسح الجيولوجي الأمريكي وأرامكو .

أما خريطة الجزيرة العربية الأكثر تفصيلاً من مقتنيات المكتبة فهي خريطة باسم "شبه الجزيرة العربية" . ويسمح المقياس الكبير للخريطة بتضمين تفاصيل كثيرة . ويتضمن جدول رموز الخريطة ٢٥ رمزاً . وتشير الرموز إلى كل من المستوطنات من ثلاثة أقسام والطرق الرئيسية من ٤ أنواع، وسكك الحديد وسكك الحديد المهجورة والمحطات والخرابات والمطارات وأنابيب الماء ومراكز التزود بالماء في الصحراء، وآبار النفط ومحطات شحن النفط ومحطات الضخ ومصانع التكرير والصخور المرجانية ومقذوفات البراكين والحدود الدولية وكذلك قاموس جغرافياً عربياً إنجليزياً يضم أكثر من ٤٠ كلمة . وفي الخريطة توجد معلومات مفصلة عن مصادر المعلومات المستخدمة في إعدادها . وعلى سبيل المثال : "المعدة في عام ١٩٥٧م من مجموعة من المكالمات والصور الجوية والجولات الاستطلاعية على الأرض . وفي حالة عدم توافر الصور تم اللجوء إلى خرائط الطيران العالمية لدائرة الحرب البريطانية من مقياس ١:١,٠٠٠,٠٠٠ و ١:٢٥٠,٠٠٠ ونتائج الجولات الاستطلاعية على الأرض والارتفاعات المذكورة في غرب الجزيرة العربية ليست إلا نتيجة تدوين مقياس الارتفاع دون المراقبة . والخطوط التي تفيد أعماق البحر ورموز

الصخور مبنية على البيانات المتواجدة في مكتب الهيدروغرافيا الأمريكي والأميرالية البريطانية . والحدود المرسومة على وجه التقريب . والأسماء الجغرافية المرسومة تطابق الأسماء المتداولة في يناير ١٩٥٨م وترجع الفروق البسيطة المتواجدة بين الأسماء المذكورة في هذه الخريطة والخريطة بمقياس ٥٠٠,٠٠٠ :١ لنفس المساحة، إلى تحديث المعلومات" .

والخرائط عن الجزء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية (اليمن حاليا) التي رسمها (هرمن فون ويسمان) اعتمدت على البيانات المعدة من قبل حملات الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في عامي ١٩٣١م و ١٩٣٩م، ولم تنشر إلا بعد الحرب في ١٩٥٨م . وتوجد في فهرس الرموز، الإشارة إلى المدن والقرى والخرابات والأضرحة والمقابر والطرق ومسارات الحملات المتبعة والمهابط والحدود والقبائل والأقاليم والأنهار الجافة والجداول المائية . وكذلك يوجد قاموس عربي إنجليزي صغير يحتوي على ٦٠ كلمة مثل : العين ونجد والخريف وحوض ماء الأمطار . .الخ . والخرائط التي اعتمدت على المعلومات المأخوذة من الحملات والجولات الاستكشافية والصور الجوية موثقة ويمكن الاعتماد عليها . والبيانات الواردة من عمليات المسح التي قام بها (ويسمان) مدعمة بالتفاصيل المتواجدة في خرائط (أو إتش ليتل) لعام ١٩٢٥م خرائط (سانت جي بي فيلبي) لعام ١٩٣٦م، وخرائط (إف هيبروك) لعام ١٩٥٠م والرحالة الآخرون . وتشمل أيضاً بعض المعلومات الواردة في خريطة (جي إس جي إس رقم ٣٩٩٧) وخريطة شركة النفط العراقية المبنية على الصور الجوية، وخريطة الاستكشافات الجوية للرائد (بيلربي) لعام ١٩٤٧م، وبعض المعلومات التي تضمنتها الصور الجوية والتي تقدمت بها مديرية المساحات عبر البحار .

وقد عمل علماء الجيولوجيا والمهندسون من الاتحاد السوفييتي في شبه الجزيرة العربية منذ السبعينات .

وكذلك عملت شركة الجيولوجيا الخارجية في الثمانينات من القرن العشرين وتم جمع المعلومات التي نشرت بشكل الخرائط الجيولوجية والمعمارية للموارد المعدنية لجنوبي غرب الجزيرة العربية .

وهكذا، لمدة طويلة، أي منتصف القرن العشرين تم عرض المفاهيم المرئية عن شبه الجزيرة العربية في كل من أوروبا وروسيا بشكل الخرائط المطبوعة على يد الباحثين والأخصائيين السوفييت .

وتتوافر الخرائط التي رسمت فيها بلدان شبه الجزيرة العربية : وهي كل من العربية السعودية وعمان والإمارات العربية المتحدة واليمن وأقاليمها في مقتنيات المكتبة . وللأسف لا توجد فيها خرائط لكل من قطر والكويت والبحرين . وإن نشر الخرائط عن الدول المستقلة مرتبط بنيل الاستقلال وكذلك بتحديد حدودها ومساحاتها . غير أنه في البداية، تم إعداد خرائط الدول المستقلة بمساعدة المتخصصين الأجانب وكثيراً ما طبعت في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

وتوجد في المكتبة بعض الخرائط عن المملكة العربية السعودية (التي أصبحت دولة مستقلة في عام ١٩٢٦م) بشكل أطلس مع فهرس للمراجعة . ومنها الخرائط الطبوغرافية والجيولوجية التي أعدت بمساعدة كل من دائرة المسح الجيولوجي الأمريكية وشركة أرامكو .

وتمثل خريطة جيولوجية سلطنة عمان (التي أصبحت مستقلة في ١٩٧٠م) وتم إعدادها أيضاً بمساعدة من الخبراء الأجانب .

وتظهر الإمارات العربية المتحدة الفيدرالية (شكلت في ديسمبر ١٩٧١م) في خريطة جغرافية عامة وفيها تصاميم المدن الرئيسية .

ولابد أن نذكر أن عدداً من الخرائط عن شبه الجزيرة العربية التي أعدت في السنوات الأخيرة وصل إلى المكتبة .(ربما باستثناء الخرائط التي نشرت في أوروبا) وأحدثها وصل إلى قسم الخرائط الخاص في التسعينات من القرن العشرين .

وختاماً يمكن لنا أن نقول بأن مجموعة الخرائط عن شبه الجزيرة العربية التي هي من مقتنيات المكتبة الروسية، ترجع إلى فترات زمنية وهي من مقاييس مختلفة وتعالج مواضيع مختلفة . ونظراً إلى أنها تشير إلى الاتجاهات والميول السائدة في المنطقة العربية في فترات مختلفة من الزمن فيمكن دراسة العمران وتشكيل الدول في هذه المنطقة عن طريق دراسة هذه المجموعة .

د. أو. إيه. كراسنيكوفا – بطرسبرج
مديرة قسم الخرائط بجامعة بطرسبرج